

## الفصل الثالث

### يوسف بن تاشفين وقيام دولة المرابطين بالمغرب والجواز الأول الى الاندلس

مر معنا من قبل أن البكري الذي كان يكتب عن المرابطين سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م لم يعرف يوسف بن تاشفين مسع أن الرجل كان كما توحى المصادر الأخرى كان في العقد السادس من عمره وكان من أبرز زعماء المرابطين ، وجاء لدى كل من صاحب روض القرطاس والحلل الموشية ما يفيد أن ابن تاشفين كان ابن عم أبي بكر بن عمر ، ابن عمه لحمه ، يجتمع معه في حدهم «إبراهيم بن تورقيت» والد كل من تاشفين وعمر . لكن والرحل بهذه المكاه وهذا النسب لماذا لم يعرفه البكري ؟

والثير للانتباه أن الادريسي عندما تحدث عن أهم قبائل صنهاجة أوحى إلينا بأمر آخر حول القرابة فيما بين ابن تاشفين والأحويين أبي بكر ويحيى بن عمر . يقول الادريسي « ومن قبائل صنهاجة بنو منصور وتمية وجدالة ولتونة ، وبنو إبراهيم وبنو تاشفين. وبنو محمد وجمل من صنهاجة » (١٠) فهل ياترى انحدر يوسف من بني تاشفين وانحدر أبو بكر مع أخيه من بني إبراهيم ؟ إذا صح هذا ففيه تبيان لنوع القرابة التي ربطت يوسف بالأميرين اللذان تقدماه .

وترجم ابن خلكان في وفيات الأعيان ليوسف بن تاشفين ، واستقى معلوماته من كتاب حمل اسم «المعرب عن سيرة ملوك المغرب» لم يهتد الى مؤلفه غير أنه وجد في مطلع النسخة التي نقل عنها أنها كتبت في الموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة «وجاء في

هذه النسخة « كان بر المغرب الجنوبي لقبيلة تسمى زناتة ، فخرح عليهم من جنوبي المغرب من البلاد المتاخمة لبلاد السودان الملتمون يقدمهم أبو بكر بن عمر ، وكان رجلا ساذجا خير الطباع ، مؤثرا لبلاد على بلاد المغرب ، غير ميال الى الرفاهية ، وكانت ولاية المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملائمين ، فأخذ البلاد من أيديهم من باب تلمسان الى ساحل البحر المحيط ، فلما حصلت البلاد لأبي بكر بن عمر المذكور سمع أن عجوزا في بلاده ذهبت لها ناقة في غداة فدكت وقالت ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله الى بلاد المغرب ، فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلا من أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين ، ورجع الى بلاده الجبونية . وكان يوسف هذا رجلا شجاعا عادلا مقداما ، احتط بالمغرب مدينة مراکش» (٢) .

وكما قد سمعنا عن يوسف بن تاشفين للمرة الأولى لدى توليته سحلماسة تم في الحملة صد برغواطة ، ولقد عاد مع أبي بكر بن عمر وعسكر معه في أغمات ، وكانت حاضرة ديار قبائل مصمودة ، ولم يعش أبو بكر بن عمر طويلا في أغمات بل عاد نحو الصحراء ، وحين فعل ذلك أوكل الأمور في بلاد المغرب الى يوسف بن تاشفين حتى أنه طلق زوجته زينب النفراوية وأوصاها بالزواج من يوسف ففعلت

لم تمحض قبائل مصمودة الولاء للمرابطين ، وكانت أغمات التي اتخذت الآن حاضرة لهم بلدة مردهرة غير أن سكانها كانوا من مصمودة ، وكانت منقسمة الى بلدين هما أغمات وريكة وأغمات هيلانة ، وكان أن تخلص أغمات للمرابطين معناه اخراج أهلها منها واسكان المرابطين محلهم ثم توحيد المدينة وتحصينها بالأسوار وغير ذلك من الوسائل الدفاعية ، ولم يكن هذا ممكنا ، يقول الزهري : « والمصامدة خلق كثير ، مسيرة بلادهم عشرون يوما ، وعندهم بالمغرب الكسب الكثير من بقر وغنم ، والزرع قليل ، وأكثر فاكهتهم العنب والزيتون والتين ...

وأما مدينة أغمات التي هي في أقصى هذا الصقع فهي مدينة موسومة بالقدم ، وكانت حاضرة المصامدة ، وبالقرب منها البركة العظيمة التي تجتمع فيها مياه أغمات كلها ، وهي كثيرة الفواكه والكروم والزروع والضرع» (٣) .

لذلك توجب على المرابطين اتخاذ حاضرة لهم خاصة بهم بدلا من أغمات ، فجرى استطلاع المنطقة فوق الاختيار على موقع مراكش. وجاء عند صاحب الحلل الموشية : « لما خرج - أبو بكر بن عمر - من الصحراء بالامتونيين ، واحتلوا بأغمات وريكة ، وكثر الخلق بها وضيقوا على أهلها ، وكانوا على حال صعبة ، شكوا أشياخ وريكة وهيلانة الى الأمير أبي بكر بن عمر ما يلحقهم في ذلك من العناء والمشقة وأنهوه اليه المرة بعد المرة ، الى أن قال لهم : عينوا لنا موضعا نبني فيه مدينة ان شاء الله .

فاجتمعوا على أن يكون بناؤها بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة فعرفوا بذلك الأمير أبا بكر بن عمر ، وقالوا له : قد نظرنا أيها الأمير موضعا صحراء ، رحب الساحة واسع الفناء يليق بمقصدك . وقالوا له (وادي) نفيس جنانها ، وبلاد دكالة فدائها وزمام جبل درن بيد أميرها» (٤) .

ولعل النقطة الهامة في هذا ليس تبين الامكانيات الاقتصادية للموقع المرتاد وانما «زمام جبل درن» فهنا مفتاح السيطرة على المنطقة وضمان التواصل مع الصحراء ، ويستخلص مما رواه صاحب الحلل الموشية أن بداية هذا المشروع العظيم جاءت سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٥٨ م ، وذلك في ظل قيادة أبي بكر بن عمر ، فهو كان موجودا في أغمات ، ويضيف صاحب الحلل أنه شرع في بناء المدينة الجديدة «سنة اثنتين وستين وأربعمائة» وأنه بينما «الأمير أبو بكر ابن عمر قد نزل بها وأخذ في بناء الديار ، اذ وفد عليه رسول من قبيلة لتونة بالصحراء ، يعلمونه أن جدالة أغارت عليهم ، وكانت بينهم فتنة دائمة ، فاستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب، ودخل الى الصحراء لاصراخهم ولأخذ ثأرهم من عدوهم» (٥) .

وليس من السهل الركون الى هذه الرواية والاعتماد على ما جاء بها من تواريخ ، فلقد راينا من قبل أن ابا بكر بن عمر عاد الى الصحراء للحرب ضد السودان وعلى جبهة السودان قضى ، ثم إن دينار ابنه ابراهيم وما ذكره ابن الاثير والنويري قد دعانا الى مراجعة الروايات المعطاة الينا وبعض المصادر حول تاريخ وفاته ذلك أن المعتمد دوما هو الوثيقة لاسيما اذا دعمتها بعض الروايات ، هذا وجعل صاحب روض القرطاس تاريخ تأسيس مراكش سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م (٦) .

ومهما يك من أمر يبقى تاريخ مراكش مرتبط بـيوسف بن تاشفين لابل أكثر من هذا إن تاريخ حكم المرابطين بالمغرب ثم بالاندلس مرتبط بشخصية يوسف بن تاشفين ، وبعد يوسف عاشت دولة المرابطين بداية النهاية .

وجاء رسم اسم مراكش في المصادر المبكرة «مروكش» أو ما يشابه ذلك ، وقد اختلف حول تأويل هذه التسمية وتركيبها وأرجح الآراء الحديثة أن معناها «هو حمى الله أو المكان الذي ترعى فيه عهود الله» (٧) أو المرعى فقط .

وبنيت المدينة الجديدة بدون تصور موحد أو خريطة ، مثلما فعل المنصور العباسي عندما بنى بغداد ، واستخدم الناس في بناء دورهم الآجر ، إنما بنى ليوسف دار من الحجر (قصر الحجر) وعلى مقربة منه شيد المسجد الجامع ، وحول هذا المسجد قامت بعض الأسواق. إنما يبدو أن هذه المدينة وإن حصرت بأسوار دفاعية تكونت بالأصل من عدة أحواز كان كل منها أشبه بقرية منفردة ، ومرد هذا الى أن كل عشيرة أو مجموعة بشرية متجانسة اتخذت لنفسها رقعة من الأرض اختلطت عليها مساكنها ، وحين قلت مجموعة بشرية متجانسة هدفت الى الإشارة الى أن أعداد كبيرة من الأندلسيين سكنت المدينة ، انتقل بعضهم من أغمات وقدم بعضهم الآخر بعدما ما جذبتهم الدولة الجديدة ، والهجرة من الأندلس الى المغرب تصاعدت وتيرتها بنتائج حرب الاستغلاب والاضطراب السياسي في

ظل دول الطوائف ، وفيما بعد بسبب اعتماد دولة المرابطين على خبرة الأندلس في جميع المجالات ، وكان لهؤلاء الأندلسيين أعظم الآثار في تكوين شخصية المغرب الأقصى حضاريا وعمرانيا وثقافيا.

ومن المرجح أن يوسف بن تاشفين لم يحسن العربية ولا القراءة والكتابة وأن الأندلسيين تعلموا بسرعة لغة اللاتين فقاموا بدور الإداري والمترجم ، جاء عند ابن خلكان : «وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف اللسان العربي ، ولكنه كان يجيد فهم المقاصد وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية» (٨) .

وسكن مراكش بعض الأندلسيين وسواهم من غير المسلمين عملوا كمرتزقة في قوات المرابطين ، (٩) ويبدو أن الموقع الذي اختير لبناء المدينة المرابطية الجديدة كان معروفا وقس على طرق التجارة ، وكان فيه وقت وقوع الاختيار عليه « قرية صغيرة في غابة من الشجر » (١٠) وفي الحقيقة لانعرف فيما إذا كان الأندلسيون قد شغلوا دورا ما في خطط المدينة المرابطية الجديدة وفي تطويرها كما أننا لانعرف كم استغرق العمل فيها ، والمهم لدينا أنه بتأسيس مراكش امتلك المرابطون قاعدة انطلقوا منها لبناء دولتهم المغربية الأندلسية ، وامتلك - بالوقت نفسه - المغرب الأقصى مدينة غدت مع الأيام قاعدة متقدمة للإسلام وحاضرة هي الأكبر والأهم في الشمال الأفريقي .

من مدينة مراكش انطلق يوسف بن تاشفين نحو بناء دولة المرابطين المغربية ، وقد توجب عليه انتزاع معظم بلدان المغرب من قبيلة زناتة (١١) ، لكن لم يكن بإمكانه الانصراف ضد زناتة حتى يتخلص من خطر برغواطة التي جمعت فلولها ، وتولى أمرها أمير عرف بأبي حفص عبد الله (١٢) ، وقام يوسف بن تاشفين أولا بمراسلة برغواطة فبعث بسوفد من علماء المالكية الى بلاد تامسنا ، والتقى هذا الوفد مع رجالات برغواطة في مدينة انفا ( الدار البيضاء حاليا ) المطلة على المحيط الأطلسي ، وقرر البرغواطيون «إعدام السفراء ونفذوا قرارهم ، وعبأوا بعد ذلك



جيشا قوامه خمسون ألف محارب قاصدين طرد قبيلة لمتونه من مراكش ومن المنطقة كلها ، وعندما علم يوسف بذلك انتابه أشد غضب انتابه في حياته ، فجمع جيشا عظيما ولم ينتظر قدوم العدو الى مراكش ، ووصل خلال ثلاثة أيام الى الاقليم بعد أن عبر نهر أم الربيع ، وعندما رأى أهل تامسنا هذا الجيش الزاحف لمواجهةهم بحمية شديدة ، انتابهم الخوف وتحاشوا المعركة وعبروا نهر أبي الرقراق في اتجاه فاس ، تاركين اقليمهم ، وحينئذ أباح الملك يوسف هذا الاقليم وسكانه لجيشه ، فأصبح طعمه للنار والدم والنهب والتقتيل للكبار والصغار حتى الأطفال الرضع .

وفي خلال الأشهر الثمانية التي جاس فيها البلاد عمل على تخريبها حتى لم يبق فيها سوى بعض اطلال من المدن التي كانت قائمة فيها ، أضف الى ذلك أن ملك فاس الذي بلغه نبأ قصد أهل تامسنا عبور نهر أبي الرقراق زاحفين باتجاه فاس ، عقد هدنة مع قبائل زناته ، واتجه نحو النهر المذكور على رأس جيش لجب ، وهناك واجه ملك تامسنا البائس الذي كانت قواته منهوكة القوى تماما بسبب الجوع والبؤس ، ولما حاول ملك تامسنا عبور النهر وجد الأمر مسدودا في وجهه بتأثير قوات ملك فاس ، وهكذا اضطر هؤلاء البؤساء بعد أن أصبحوا مطاردين ويأسوا من قضيتهم إلى التشمّت في الغابات وبين الصخور التي يعسر اجتيازها ، وبعد أن طوقوا وحوصروا من قبل الجيوش الملكية أبيدوا بثلاث طرائق ، فبعضهم غرقوا فعلا في مياه النهر ، وبعضهم الآخر طوردوا في مناطق الجروف الصخرية فدقت أعناقهم بعد سقوطهم في الفراغ ، وحتى الذين استطاعوا أن يخرجوا من الماء سقطوا في أيدي رجال الملك حيث قطعت رؤوسهم بالسيف ، وهكذا راح سكان تامسنا يتناقصون ثم أبيدوا قاطبة في مدة عشرة أشهر ، ويقدر أن عدد الضحايا بلغ المليون بين رجال ونساء وأطفال .

وعاد يوسف ملك لمتونة إلى مراكش كي يعيد تنظيم جيشه ضد ملك فاس وترك تامسنا مأوى للأسود والذئاب والبوم . (١٣) .

وقرأنا قبل قليل ما نقله ليون الافريقي من أن يوسف بن تاشفين عاد الى مراكش بعد القضاء على برغواطية ليعد العدة للزحف ضد فاس ويعطينا ابن عذارى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م على أنه التاريخ الذي استولى فيه يوسف على فاس بشكل نهائي ، وأيده بهذه الرواية صاحب الحلل الموشية (١٤) ويعني هذا ان الحملة على برغواطية انتهت قبل هذا التاريخ بوقت قريب ، لكن يضعف هذه الرواية ما ذكره البكري الذي كان يكتب سنة ٤٦٠ هـ أن « جميع برغواطية اليوم على ملة الاسلام » (١٥) هذا وروى صاحب روض القرطاس أن الاستيلاء النهائي ليوسف بن تاشفين على مدينة فاس كان « يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين واربعمائة (١٦) ( ١٨ / أيار ١٠٧٠ م ) وكانت عمليات يوسف ضد فاس قسداً بدأت منذ سنة ٤٥٤

هـ / ١٠٦٤ م ، وأرجح أن ابن تاشفين انفرد منذ هذه السنة بحكم المغرب ، وأنه في هذه السنة عاد إلى مراكش من الصحراء أبو بكر ابن عمر ناويا عزل يوسف فأخفق وسلم له بالأمر ومن ثم عاد إلى الصحراء ، يقول صاحب روض القرطاس وفي سنة أربع وخمسين « تقوى أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب وكبر صيته ، وفيها اشترى موضع تأسيس مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة ، فسكن الموضع بخيام الشعر ، وبنى فيه مسجدا للصلاة وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه....وفي سنة أربع وخمسين المذكورة جند يوسف الأجناد واستكثر القواد ، وفتح كثيرا من البلاد ، واتخذ كثيرا من الطبول والبندود ، وأخرج العمال وكتب العهود ، وجعل في جيشه الأغزاز والرماة ، كل ذلك ارهابا لقبائل المغرب ، فكمل له من الجيش في تلك السنة أزيد من مائة ألف فارس » (١٧) .

وأعطانا صاحب الحلل الموشية مزيدا من التفاصيل حول تطوير يوسف بن تاشفين لقدراته العسكرية حتى « قوي أمره ، وعظمت شوكته ، فاشترى جملة من عبيد السودان ، وبعث إلى الأندلس فاشترى منها جملة من العلوج فأركبهم ، وانتهى عندهم مائتان

وخمسون فارسا ، شراء بما له ، ومن العبيد نحو الفين ، فأركبهم فرسانا ، فغلظ حجابيه ، وعظم ملكه » (١٨) .

ولا شك أن شعور يوسف بالخطر على ذاته قد دفعه لشراء أعداد كبيرة من الرقيق الأبيض والأسود اتخذهم حرسا له ، ومقدر أن مصدر الخطر على يوسف كان أبو بكر بن عمر فهو صاحب عصبية لتونة والمرابطين .

وبهذه القوة دفع يوسف بن تاشفين خطر أبي بكر بن عمر ثم دفع أيضا بسهولة أكثر خطر إبراهيم بن أبي بكر بن عمر الذي قدم من الصحراء بعد وفاة والده « يطلب ملك أبيه فنزل بخارج أغمات في خلق كثير من أخوانه لتونة ، فسمع بذلك أمير المسلمين ، فبعث إليه الأمير مزدلي فقال ما الذي تريد يا إبراهيم » قال اطلب ملك أبي الذي غصبنا فيه عمي يوسف ، قال مزدلي : إن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله تعالى قد خص هذا الرجل بالملك دوننا ، فإن كنت عاقلا فاطلب منه أن يعينك بمال وخيل ترجع بها إلى بلدك ، وإن طلبت غير هذا أخاف أن يجعل على رجلك قيда ، ويحبسك عنده عبدا ، وما قلت لك ذلك إلا بوجه الشفقة عليك ، فقال له : يا عمي مزدلي رضي الله عنك ، عسى أن تجتمع معه في أمري وتبين له حالي .

وكان الأمير مزدلي حسن السياسة ، صحيح المذهب ، عارفا بخدمة الملوك ، فهدن إبراهيم المذكور ، وقال له أقم في موضعك حتى أتيك بكل ما يرضيك ، فأنصرف عنه ووصل إلى الأمير يوسف بن تاشفين فحسن كلامه إليه ، وأنعم الأمير يوسف عليه بمال وخيل وكسى وغير ذلك بعدما بولغ في كرامته وضيافته ، وأحتمل له ذلك مزدلي ، فشكره الولد على ذلك وأنصرف عنه من هنالك ولم يجتمع بالأمير يوسف وما راه وأنصرف إلى الصحراء وبقي بها إلى أن مات ، (١٩) .

ونعود ثانية إلى مسألة استيلاء يوسف بن تاشفين على

فاس ، ذلك أن هذا الاستيلاء هو الذي جعل دولة المرابطين دولة مغربية ، فقد كانت فاس دوما حاضرة المغرب الأقصى من كافة الجوانب وكانت أحوالها مضطربة قبيل الاستيلاء عليها ، ولقد رأينا أن اضطراب الأحوال فيها كان وراء مغادرة أبي عمران الفاسي لها ، وكانت فاس تتألف من مدينتين هما: عدوتي الأندلسيين والقرويين ، لكل مدينة أسوارها وموقفها المعادي من الأخرى ، وقد حكمتا قبيل استيلاء يوسف بن تاشفين عليهما من قبل أخوين هما: الفتوح بن دوناس وعجيسة بن دوناس اللذان انتميا إلى قبيلة زناتة ، وتحصن الفتوح في عدوة الأندلسيين وعجيسة في عدوة القرويين « وكانت بين الأخوين عداوة وصار القتال بينهما وبين أهل العدوتين... وكثر الهرج بسبب ذلك في أرض المغرب واشتد الغلاء إلى أن ظهر أمر لمتونة في أطراف المغرب ، وظفر الفتوح بأخيه عجيسة فقتله... وبعد أن ظفر بأخيه أتاه لمتونة فنزلوا عليه وحاصروه ، وتخلّى عن المدينة فوليها معنصر ابن عمه ، إلى أن دخلها لمتونة وقتل من بها من زناتة » (٢٠) .

وبعد استيلاء يوسف على فاس « أمر بهدم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين: عدوة القرويين وعدوة الأندلس وردهما مصرا واحدا ، وأمر ببنيان المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها ، وأي زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وأجبرهم على بناء مسجد فيه ، وبني الحمامات والفنادق والأرحاء ، وأصلح أسواقها وهذب بناءها » (٢١) .

بعد استيلاء يوسف بن تاشفين على مدينة فاس شعر أن عليه إكمال مد سلطانه في مختلف الاتجاهات ، وهكذا سيطر على تلمسان وعلى مناطق أخرى من المغرب الأوسط والأقصى ، وكان بعد الاستيلاء على إقليم تلمسان قد تملك شواطئ المغرب الأقصى الأطلسية ، فالتفت نحو الشواطئ المتوسطية فأنزع ملكية طنجة وسبتة ، وشرع يتخذ لنفسه أسطولا خاصا (٢٢) .

والآن وقد عدا يوسف بن تاشفين سلطان دولة واسعة الأرجاء

بحث عن مجالات جديدة للتوسع ، وعن لقب يليق به وعن الشرعية أيضا .

كان هناك مجال واحد أمام يوسف للتوسع هو الأندلس ، وكان ذلك عملا مسوغا ومرغوبا به ، ولقد كان التوسع باتجاه المغرب الأدنى مغامرة غير محمودة العواقب ، وكانت العودة إلى الصحراء غير واردة ، وتوجب على يوسف إشغال قواته القبلية في جبهة فيها جهاد ومنافع ، وكان مثل هذا ما واجهه قادة السلاجقة بعد الاستيلاء على خراسان ، وإيقاف رجال القبائل الصحراوية وسواها عن الأعمال العسكرية المربحة كان أمرا لا يمكن ليوسف تحمله ، ولعله مثله مثل رجالاته من قادة المرابطين رأى من واجبه الجهاد في سبيل الله ، وتوفير هذا فقط في جبهة الأندلس ، مثلما راينا قد توفر للتركمان فقط في الأراضي البيزنطية بعد الاستيلاء على ديار المسلمين في الشام والجزيرة والعراق وخراسان .

وكانت بلاد الأندلس بجبهاتها مؤانسة تماما لمقاصد يوسف والمرابطين ، وكما فعل بداء التركمان حين حاربوا في الشام والعراق والجزيرة حاربوا ضد الهرطقة ، وحين قاتلوا بيزنطة كان ذلك في سبيل الله ، ودار عيش وهجرة وسكن في المستقبل ، والشئ نفسه في الأندلس ، كان القتال في الداخل قتالا ضد حكام كلهم فساد وتقصير وظلم وفرقة وفتنة واضطهاد ، والقتال ضد النصارى كان جهادا في سبيل الله .

ولهذا زاد يوسف من الاعتماد على العناصر الأندلسية في إدارته ، ولم يكتف بذلك بل إنه اشترى بعض النصارى وجند منهم مرتزقة في قواته كما استورد السلاح من الأندلس وأوربة وخاصة السيوف ، ويبدو أن حكام الأندلس من ملوك الطوائف كانوا يرقبون بقلق ما كان يجري على أرض المغرب ، وراينا من قبل أن أفضل المعلومات عن حركة المرابطين حتى سنة ٤٦٠ هـ تلك التي دونها الأمير الأندلسي أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك ، والبكري لم

يرحل إلى المغرب بل استقى معلوماته مما وصل من المغرب إلى الأندلس .

جاء في ترجمة يوسف بن تاشفين لدى ابن خلكان أن كاتبه قال : « له أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظموذك فيه ، ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ، ويلتمسون منك أن لاتجعلهم في منزلة الأعادي فإنهم مسلمون ، وهم من ذوي البيوتات فلا تغير عليهم وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار ، وبلادهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فاعرض عنهم إعراضك عن أطاعك من أهل المغرب » .

وتداول يوسف مع كاتبه حول شكل الجواب الذي سيبعث به فجاء حسبما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم - من يوسف بن تاشفين : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية من سالمكم وسلم إليكم ، وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم ، وإنكم بما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة ، مخصصون منا بأكرم إيثار وسماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا إخواننا بإصلاح إخوانكم ، والله ولي التوفيق لنا ولكم ، والسلام » (٢٣) .

وهام التمعن في الفقرة الأخيرة من إجابة يوسف خاصة قوله « فاستديموا وفاءنا بوفائكم » .

فهنا تهديد مبطن وإنذار ، ولم يرد في الرسالة أدنى وعد بعدم التدخل في شؤون الأندلس ، لكن المسألة ارتبطت بالفرصة المناسبة وباستكمال الاعدادات البرية والبحرية .

وطور يوسف إدارة دولته الناشئة وضرب نقوده ، وكتب « إلى أمراء المغرب وأشباه القبائل من زناتة ، والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه ، فكسا جميعهم ووصلهم بالأموال ، ثم خرج معهم ليطوف على جميع أعمال المغرب ويتفقد

أحوال الرعية ، وينظر إلى سير ولاتهم وعمالهم فيه ، فصلح على يديه بذلك كثير من أمور الناس » (٢٤) .

وكان يوسف بن تاشفين حتى الآن « يدعى بالأمير ، فلما ضحمت مملكته واتسعت عمالته اجتمع إليه أشياخ قبيلته ، وأعيان دولته ، وقالوا له : أنت خليفة الله في هذا المغرب ، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير ، بل ندعوك بأمير المؤمنين ، فقال لهم : حاشى لله أن نسمى بهذا الاسم ، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وأنا رجلهم ، والقائم بدعوتهم ، فقالوا له : لابد من اسم تمتاز به ، وبعدها أجاب إلى أمير المسلمين وناصر الدين ، خطب له بذلك على المنابر ، وخطب به من العدوتين ، وأمر كتابه أن يكتبوا عنه في ذلك » (٢٥) .

وبات على يوسف بن تاشفين الآن الاتصال بالخلافة العباسية في بغداد والحصول منها على تفويض له بحكم المغرب واعتراف بشرعية سلطانه ، وكان كاتب الخلافة آنذاك ابن موصلايا ، وهناك نسخة خطية من رسائل هذا الكاتب في تونس لم استطع الوقوف عليها ، لكن أخبرت أنها تحتوي على نصوص المراسلات مع يوسف بن تاشفين .

وإعرف أيضا أن ابن تاشفين قام في مرحلة لاحقة بإرسال بعثة إلى بغداد قوامها أبو بكر بن العربي ، الفقيه المشهور وصاحب العديد من المصنفات من بينها العواصم من القواصم ، مع أبيه ، وأودع أبو بكر بعض أخبار ما حدث معه في المشرق في مؤلفاته لاسيما في كتابه العواصم ، وكتب كتابا مفردا عن رحلته ، عثر على أجزاء منه ونشرت ، وكنت قد رأيت في فاس نسخة كاملة من هذه الرحلة نسخت بخط رديء في عدة دفاتر ، قيل لي وقتها أنها نسخت عن نسخة خطية محفوظة في مكتبة الزاوية العياشية قرب فاس .

وطبعا حصل يوسف بن تاشفين على الاعتراف العباسي المطلوب

وقيل إن أخباره أَرْضَتْ كِبَارَ الْفُقَهَاءِ فِي الْعِرَاقِ وَخَاصَّةً الْإِمَامَ الْغَزَالِيَّ حَتَّى رَوَى أَنَّ مَرَاثِلَاتٍ تَمَّتْ بَيْنَ الْغَزَالِيِّ وَيُوسُفَ ، وَذَلِكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْمُرَابِطِينَ عَارِضُوا نَشْرَ كِتَابِ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ لِلْغَزَالِيِّ إِلَى حَدِّ أَنْهُمْ أَمَرُوا بِأَحْرَاقِ نَسْخِهِ .

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ جَمِيعَ مَا عَرَضْنَاهُ حَتَّى الْآنَ عَنِ التَّارِيخِ الْمُرَابِطِيِّ كَانَ الْهَدَفُ مِنْهُ التَّوْطُّؤُةُ لِلْحَدِيثِ عَنْ دُخُولِ الْمُرَابِطِينَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَمَا نَجَمَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ نَتَائِجٍ فِي تَوْحِيدِ الْأَنْدَلُسِ ، وَدَفْعِ خَطَرِ السَّقُوطِ عَنْهَا ، وَجَعْلِهَا وَلايَةً مَغْرِبِيَّةً الْأَمْرَ الَّذِي نَجَمَ عَنْهُ نَتَائِجُ خَطِيرَةٍ عَلَى صَعِيدِ الشَّمَالِ الْأَفْرِيقِيِّ وَالْأَنْدَلُسِ مَعًا وَعَلَى صَعِيدِ عِلَاقَاتِ الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ بِأُورْبَا الْمَغْرِبِيَّةِ .

لم تكن الاستعانة الأندلسية بقبائل البربر المغربية هي الأولى من نوعها ، فبصرف النظر عن المشاركة البربرية الفعالة في فتح الأندلس استمر تدفق البربر على هذه البلاد ، وازداد ذلك في القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد إثر الصراع بين قرطبة والمهدي ، واحتلال القوات الأندلسية لأجزاء هامة من أراضي المغرب الأقصى.

لقد حدث التدخل الأندلسي في أيام الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ، واستمر أيام ابنه الحكم ، وشهدت الأندلس بعد وفاة الحكم تطورات سياسية خطيرة جدا تمثلت بثاستيلاء المنصور العامري على السلطة وحجره على الخليفة هشام بن الحكم.

والمنصور العامري هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر ، ينتمي الى قبيلة معافر الحميرية اليمنية ، وأمه سيدة أصلها من قبيلة تميم واسمها بريهة ، وقد ولد سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م في قرية طرش ، موطن أجداده الذين دخلوا الأندلس في أيام فتحها ، وقد نشأ منذ صغره متميز النباهة أهتم بثقافته وعلومه ، طموحا ، أرا. أول حياته أن يكون قاضيا لكن طموحه دفع به نحو ارتقاء المناصب ليكون سيد الأندلس بلا منازع (٣٦).

التحق محمد بن أبي عامر بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس ودار خلافتها ، وكان الخليفة وقتها الحكم بن عبد الرحمن ، وكان هذا الخليفة قد تسلم الخلافة بعدما تقدم به السن ، ولم يحظ بولد الا بعد أمد طويل ، وأنجبت له الولد السيدة صبيح وكانت من أصل بشكنسي ، وحمل هذا الولد اسم عبد الرحمن ثم أنجبت له هشام الذي سيكون آخر خلفاء بني أمية في الأندلس.

لم تطل الإقامة بابن أبي عامر في قرطبة حتى التحق بخدمة السيدة صبيح ليشراف على إدارة أملاكها مع أملاك ولي

العهد ، وحظي ابن عامر باعجاب السيدة صبيح واسعدتها وأدخل السرور على حياتها ، وكان كريما متلافا ، وقد تهيأت أمامه السبل ليترقى بالمناصب فاستلم ادارة السكة (٢٧) ثم ما لبث ان تولي وظائف أخرى منها رئاسة الشرطة الوسطى ، وبذلك عرض جأه وتوثقت صلاته بالوزير الأول المصحفي وبغيره (٢٨) .

وفي سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م توفي الأمير الصغير عبد الرحمن ، فأسند لابن عامر ادارة أملاك أخيه هشام المؤيد ، وفي هذه الأثناء كلف ابن عامر من قبل الخليفة الحكم بالذهاب إلى المغرب لمرافقة وفد بربري كبير من زناتة على رأسه يحيى بن علي بن حمدون ، وبذلك تعرف ابن عامر للمرة الأولى من حياته على قبائل المغرب الأقصى وكسب خبرة بشؤون الحرب والجيش وقامت علاقات بينه وبين القائد غالب ، الذي كان غارس الأندلس وأعلى العسكريين فيها شأننا (٢٩) .

ومع الأيام شعر الحكم بأعباء تقدمه بالسن وبثقل المرض ، فأراد أن يوصي بالخلافة من بعده ، وكان ابنه هشام ما يزال طفلا بدون مؤهلات ، ومع هذا أثر الحكم هواه في محبة ابنه فسماه في سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م وليا لعهد ، مع أنه كان بإمكانه تسمية واحد من أله فيه الأهلية ، وتسمية هشام وليا لعهد هذا المسمى (٣٠) .

واستفاد ابن أبي عامر منبيعة هشام بولاية العهد نظرا لعلاقاته الوثيقة به وبأمه ، وتعاون ابن أبي عامر مع الوزير جعفر بن عثمان المصحفي ، وفي سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م توفي الخليفة الحكم ، وكتم نبا وفاته ، وحاول كما ذكرنا من قبل غلمان القصر من الصقالبة خلع هشام وعدم بيعته ، ورد الأمر إلى الأمير المغيرة بن عبد الرحمن أخو الحكم (٣١) ولم تفلح خطة الصقالبة ، وتعاون المصحفي مع ابن أبي عامر على تصفية قوى الصقالبة الذين تحكموا بالدولة وذلك بعدما تمتبيعة هشام وقتل الأمير المغيرة .

وبعد هذا سعى ابن أبي عامر إلى التخلص من الوزير المصحفي فتحالف مع القائد غالب وصاهره ، وشاركه في عدة عمليات عسكرية

ضد الدول الأسبانية في الشمال ، وفي سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٨ م صرف المصحفي عن عمله ، وأودع السجن مع أهله (٣٢) وظل يعاني من الذكبة حتى توفي مسجوناً.

وطبعاً عندما عزل المصحفي حل محله ابن أبي عامر ، فعمل في سبيل تقوية سلطانه والتخلص من كل نوع من أنواع المعارضة بمختلف الوسائل من قمع وشراء للزعم ومؤامرات ، واستحوذ على رضى الفقهاء والقضاة إنما بكل صعوبة ، ولم يبق أمامه غير القائد غالب واحتاج التخلص منه إلى جهد كبير واستعدادات خاصة.

قام ابن عامر أولاً بالحجر على الخليفة وعزل دار الخلافة - مدينة الزهراء - كلياً ، وأبتنى لنفسه مدينة سماها الزاهرة غدت مقر السلطة التي رست كلها بيد ابن أبي عامر الذي تلقب الآن بالمنصور ، وهو لقب له مضامين مهدوية ويمانية ، ولم يبق عليه سوى التلقب بإمرة المؤمنين والخلافة ، لكنه لم يقدم على هذه الخطوة لمخاطر ذلك آنذاك ، إنما مهد لذلك السبيل ، وخط سابقة الانتزاع على السلطة ومن ثم تمزيق الأندلس.

لقد كان ابن أبي عامر مجاهداً من الدرجة المثلى قاد أكثر من خمسين حملة ضد الدول الأسبانية في الشمال ، وهزم قوى هذه الدول وجعل ملوكها ينقادون إليه ، غير أنه لم يقض على أي منها ، وتصاهر مع أكثر من ملك من ملوكها ، وهكذا مع ظهور بوادر الضعف على الأندلس وتمزقها أنقض هؤلاء الملوك عليها وقادوا حملات مدمرة ضدها.

وأهتم عدد من الباحثين بالحياة العسكرية الجهادية لابن أبي عامر ، ويروى أن ابن حيان - مؤرخ الأندلس الكبير - أوقف كتاباً خاصاً على أخبار حملات ابن أبي عامر ، وهذا الكتاب بحكم المفقود ، وفي مخطوط جغرافي تاريخي مجهول المؤلف اسمه ذكر بلاد الأندلس أتى المؤلف على أخبار حملات ابن أبي عامر جميعها لكن بشيء من الاختصار.

ونعود الآن نحو مسألة تصفية ابن أبي عامر للقائد غالب ، لقد

فعل هذا بفضل امتلاكه لقوات عسكرية خاصة به جندها وأشرف على تسليحها وقادها في حملاته ، وجاءت عناصر هذه القوات من المغرب الأقصى خاصة من قبيلة زناته ، ووصلت إلى الأندلس على شكل قبائل وأفراد حتى بلغ تعدادهم الآلاف ، وتعلق المغاربة بابن أبي عامر لكرمه ولشدة اهتمامه بهم (٣٣) .

وهام جدا مسألة اعتياد الأندلسيين على التقوي بالمغاربة والاستعانة بهم ، لا بل إنه لمن المثير أن نعرف أن السيدة صبح وقد ضاقت باهمال ابن أبي عامر لها وانصرافه عنها ، فحدثت عن شخصية تستعين بها للتخلص من ابن أبي عامر ، فوقع اختيارها على زيري بن عطية المغراوي الخزري أول ملوك زناته بالمغرب الأقصى ، فاتصلت به وعملت على إرسال الأموال ليأتي إلى الأندلس لازاحة ابن أبي عامر ، لكن هذه المؤامرة كشفها ابن أبي عامر ، وأرسل بالقوات إلى المغرب الأقصى فتمكنت من ائزال هزيمة ساحقة بزيري بن عطية (٣٤) .

وكان القائد غالب قد ضاق بتصرفات ابن أبي عامر ، خاصة تجنيده لرجال قبائل زناته ، فتحالف مع ملوك الشمال من الاسبان ، لا بل هم بقتل ابن أبي عامر بيديه ، وجرحه في وجهه وأبان بعض أنامله ، ونجا منه ابن أبي عامر ، وأخذ بجمع قواته وفي ٣٧١ هـ / ٩٨١ م نازله وقامت معركة شديدة بين الطرفين أنجلت عن مقتل غالب وتمزق قواته (٣٥) .

وهكذا غدا ابن أبي عامر سيد الأندلس بلا منازع ، غير أنه ظل عرضة للمؤامرات حتى أن ابنه عبد الله تأمر عليه ، فاعتقله وأعدمه. (٣٦) ولا شك أن المنصور بن أبي عامر قد حقق كل ما طمح إليه وأمن الحماية والمنعة للأندلس ، لكنه جاء في وقت كان المجتمع الأندلسي قد قطع فيه مراحل واسعة نحو الوحدة والوثام والاكتفاء الذاتي ، وكانت طاقات أهل البلاد العسكرية كافية ، غير أن المنصور أبعد الأندلسيين عن الميدان العسكري وأسقط العرب من الديوان واقتصر بالاعتماد على القبائل البربرية من زناته بشكل

خاص ، فأخل هذا بالبنية العامة ، يقول الفتح بن خاقان « وائل قبائل الأندلس بأجازة البرابر ، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر ، فإنه قاومهم بأضدادهم واستكثر من أعدادهم حتى تغلبوا على الجمهور ، وسلبوا عنهم الظهور ، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور ، الذي أعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا ، وملاها وحشا وذنابا ، وأعراها من الأمان» (٣٧) .

وتحدث الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري في غرناطة وهو الذي عزله يوسف بن تاشفين - كما سيمر معنا - تحدث في مذكراته عن المنصور بن أبي عامر وسياسته العسكرية ونتائجها بقوله : « وتوقع المنصور من أجنادة الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذا كانوا صنفًا واحدًا وتألّبهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ، فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسول له رايه أن تكون أجنادة قبائل مختلفة وأشتات متفرقة ، إن هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة غلبها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقويه عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تخلل بلاد العدو وتدويخها متى شاء ، فاستجلب رؤساء البربر وحماتها وأنجادهما من بلغه فروسيته وشدته ، وتسامع الناس بالجهاد ، فبادر اليه من شرق العدو من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على الذصارى ما لاخفاء به : وبهم كان يصل ابن أبي عامر على العدو ، وهم كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقا ، ومعترك الوغا.....

فرتب ابن أبي عامر الرتب ، وأظهر هيبة الخلافة ، وقمع الشرك ، وحض المسلمين عامة على الغزو ، فعجز عن ذلك رعية الأندلس ، وشكوا اليه ضعفهم عن الملاقاة ، وشغلهم بالغزوات عن عمارة أرضهم ، ولم يكن القوم أهل حرب ، فقاطعهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ، ويعطوا من أموالهم كل عام ما يقيم به من الأجناد من يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم ، فضرب عليهم الاقطاع ، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها عليهم ، وفرض بينهم مالا يرتزق منه الجيش ، فبقيت تلك الاقطاع عليهم الى ان

عمت الاندلس عدة الثوار ، واتبعوهم على تلك الاثار ، ودأبه في ذلك إنما كان على ما وصفناه .....

فلما تمت الدولة العامرية ، وبقي الناس لا امام لهم ، ثار كل قائد بمدينته ، وتحصن في حصنه بعد تقدمه النظر لنفسه ، واتخاذ العساكر ، وادخاره الاموال ، فتنافسوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الآخر ، وكذلك لا يصح امر بين نفسين ، فكيف سلاطين كثيرة واهواء مختلفة (٣٨) ١٥

على هذا إن التدخل الاندلسي في شؤون المغرب الأقصى ، قد مهد السبل لتحويل الاندلس الى ولاية مغربية ، وهكذا صار كلما تغير الوضع السياسي في المغرب تغير بالاندلس ، ففي ايام زناته وحكمها للمغرب ، تحكم الزناتيون بالاندلس ، وعندما قامت دولة لمتونة ازاحت زناته عن حكم المغرب ، فكان بالتالي ان الت الأمور في الاندلس الى لمتونة وبعد امد استطاع المهدي بن تومرت وخليفته من بعده القضاء على لمتونة ودولة المرابطين بواسطة قبيلة مصمونة فما لبثت الاندلس أن غدت ولاية موحدية حكامها من مصمونة ، وبعد زوال ملك مصمونة وحلول المرينيين في ملك المغرب الأقصى ، تغير الحال في الاندلس مجددا وظلت الأمور تسير على هذا المنوال حتى سقوط غرناطة وطرد العرب من الاندلس.

صحيح رأينا من قبل ان عبد الرحمن الداخل عزل الاندلس سياسيا عن بقية دار الاسلام ، وجعلها تتحمل بطاقتها لوحدها مواجهة قوى اوربا الصليبية ، غير ان عبد الرحمن أوجد شرعية استقطب أهل الاندلس حولها بدلا من العصبية القبلية والصراعات العرقية ، وفي ايام عبد الرحمن الثالث تحولت الشرعية الى خلافة ، وتسارعت التحولات وتعمقت ، فجاء المنصور بن أبي عامر فأوقفها وجلب المرتزقة البربر الى البلاد ، وبدد غطاء الشرعية ، لذلك ما ان زالت الدولة العامرية كما قال الأمير عبد الله : « وبقي الناس بلا امام لهم ، ثار كل قائد بمدينته وتحصن في حصنه بعد تقدمه النظر لنفسه ، واتخاذ العساكر وادخاره الاموال ، فتنافسوا على الدنيا ،

وطمع كل واحد في الآخر ، وكذلك لا يصح امر بين نفسين ، فكيف سلاطين كثيرة واهواء مختلفة » (٣٩) .

وإنه لأمر مثير أن نقرأ مقدمات سقوط الأندلس في سيرة أعظم حكام الأندلس وأشدّهم نكايّة في العدو ، وأكثرهم حذكة ودهاء : إنها حقائق التاريخ ، وغالبا ما كانت الحقائق مرة المذاق ، والفارق كبير بين عبادة البطل بعين غير مبصرة وبين بصيرة التاريخ : ومهما يك من أمر واجه المنصور بن أبي عامر منيته سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م وهو عائد من حملة جهادية في الشمال ، وتوفي في مدينة سالام ، وكان قد اتخذ لنفسه الأكفان من رزق كله حلال وجمع ما تعلق بثيابه من غبار في مغازيه ، واستدعى وهو على فراش الموت ابنه عبد الملك فإوصاه ونصحه وأرسله لتسلم مقاليد الأمور في قرطبة ، وقرر أن يكون ابنه الآخر عبد الرحمن وليا لعهد أخيه ، ثم استدعى قادة جنده وغلمانهم فودعهم وأوصاهم ، وقد توفي في ٢٧ رمضان ٣٩٢ هـ / ١١ - آب ١٠٠٢ م ، وكان يوم توفي « ابن خمس وستين سنة وعشرة أشهر ..... فكانت مدة قيامه بالدولة منذ تقلد الحجابة الى أن توفي خمسا وعشرين سنة وأربعة وأربعين يوما ، وترك من الأموال الناضجة بالزاهرة أربعة وخمسين بيتا ، وكان عدد الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها ، الذين حارب بهم الحروب عشرة آلاف وخمسمائة ، واجناد الثغور قريبا من ذلك ؟ » (٤٠) .

وتسلم السلطة عبد الملك بن المنصور ، وحمل لقب المظفر بسالاه ، وقد نعى الى الخليفة المؤيد وفاة أبيه وأخبره بتوليّه تدبير الدولة مكانه ، فأقره الخليفة وساعده على النجاح بعمله وخلع عليه وكتب له عهدا بولايته ، « فاستوسق له الأمر ، ولم يرد أحد ... طاعته واجتمع الناس على حبه » (٤١) .

ولم يكن عبد الملك مثل أبيه لغلبة « النبذ عليه واستغراقه في لذاته » (٤٢) .

ومع هذا تابع الخطط الجهادية لأبيه وبذلك حفظ للأندلس التفوق العسكري والسياسي، واستمر ورود الزعماء من زناتة على الأندلس وظهرت بوادر الضعف على الكيان العامري ، وتعرض عبد الملك

لأكثر من أزمة ، وهكذا لم تطل مدته وقد توفي في السنة السابعة لحكمه « وقيل إنه مات مسموما ، وقيل إنه مات من علة الذبحة...! سنة تسع وتسعين وثلاثمائة » (٤٣) ( ١٠٠٩ ) .

واستحوذ على الملك اثر وفاة عبد الملك أخوه عبد الرحمن ، وكان لقبه شنجول ، وكانت أم شنجول ابنة شنجة ( ساذشوغارسييس الثاني ) ملك بنبلونة ، ومن اسم شنجة نال عبد الرحمن لقبه ذلك انه « كان اشبه الناس بجده » (٤٤) وحصل عبد الرحمن من الخليفة هشام على التقليد بولاية الحجابة والافراد بالسلطة « وتلقب للدين بالناصر ثم بالمامون ، فكان يدعى بالحابج الأعلى المأمون ناصر الدولة ، فنظر في الأمور نظرا غير سديد ، وانفق الأموال في غير وجهها ، وأعان على كثير من الناس ، وبسط يده عليهم وأخذ أموالهم ، ونسب اليهم أباطيل من القول والفعل حتى قلق الناس به وابغضوه في الله ، وابتهلوا لله تعالى في الدعاء عليه » (٤٥) .

وبعد مضي شهر ونصف الشهر على ولايته طلب من الخليفة هشام « أن يوليه العهد من بعده وأن يتسمى بولي عهد المسلمين ففعل ذلك هشام معه لضعفه وسوء نظره ، ونقصان فطرته ، فولاه عهده ، فكان سبب انحراف اكابر الاندلس عن عبد الرحمن لما تبين لهم من سخف عقله ، وسرعته الى نقل المملكة عن خلفائها اليه » (٤٦) .

من الصعب القول ان عبد الرحمن طمع ان يملك الاندلس ليجمع حوله بحكم نسبه المسلمين والنصارى ، حيث يبدو انه كان غير متوازن فيه فسولة وبدون مؤهلات قيادية او عزيمة جهادية ، وكان اقرب الى الخلاعة والمجانة يعاشر رجال الشراب والغناء والضحك والتسلية واشرك معه الخليفة هشام في بعض هذه النشاطات ، وأغضبت تصرفات عبد الرحمن الناس جميعا خاصة رجال الدولة لانه عرضهم للمهانات حتى انه امرهم بتغيير ازيائهم وشاراتهم وأذلهم .

وفي سنة ٣٩٩هـ ١٠٠٩ م ثار في فرطبة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقب نفسه بالمهدي ، فخلع الخليفة

هشام واستولى على الأموال ، وكان عبد الرحمن بن المنصور العامري غائبا في الشمال ، وعندما وصلتته الاخبار قرر العودة الى قرطبة وفي الطريق تخلى عنه جنده وأعوانه لذلك بعد ما وصل الى احواز قرطبة القى عليه القبض ثم تم التخلص منه وبهذا زالت الدولة العامرية من الوجود .

ولم يترك محمد بن هشام الكفاءة او القدرات على النهوض بالاندلس واعادة رونق الدولة والخلافة لهذا « لقبته العامة المنقش لهشاشته وطيشه وخفته » (٤٧) وهكذا انتشرت الفوضى بالاندلس وزالت وحدتها السياسية وزالت الخلافة ، ولم تفوت دول الشمال الفرصة بالشروع بحرب استغلال لاتعرف الرحمة وتدخلت هذه الدول ايضا في صراعات القوى الداخلية في الاندلس وسلف بنا القول ان الفترة التي تلت عصر الخلافة عرفت باسم عصر دول الطوائف ، واسس هذه الدول متغلبون عرب وبربر وصقالبة (٤٨) .

ودخل ملوك الطوائف في صراعات متواصلة وطمح بعض الملوك فيها بالتوسع لكن لم يسع واحد منهم لاحياء الخلافة باخلاص وفي سبيل اعادة الوحدة للبلاد ، وتسابت الاندلس في هذه الآونة لكن لبعض الوقت ازدهارها الاقتصادي، واهم من هذا الازدهار الفكري والحضاري ، وتعددت مراكز السلطة ، واختص كل بلاط بعدد من الشعراء والادباء والعلماء والكتاب ، وكان هناك بذخ كبير وانفاق هائل وتميز العصر بكثرة المغامرين وبالأخذ بالانتهازية السياسية وهكذا انعدم الوفاء والشعور بقداصة الارض وحب الوطن ، واخذ الجميع بسلوك سياسي كان بعيدا كل البعد عن الاخلاق والمثل ، وتبارى ملوك الطوائف بالالقباب وكان هناك اكثر من خليفة .

قال صاحب المعجب يصف ما حدث : « واما حال سائر الاندلس بعد اختلال دعوة بني امية ، فان اهلها تفرقوا فرقا ، وتغلب في كل جهة منها متغلب ، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه ، وتقسّموا القاب الخلافة ، فمنهم من تسمى بالمعتضد ، وبعضهم تسمى بالنامون ، واخر تسمى بالمستعين والمقتدر ، والمعتصم ، والمعتمد ،

والموفق ، والمتوكل « الى غير ذلك من الالقباب الخلافية ، وفي ذلك يقول ابو علي الحسن بن رشيق :

مما يزهدني في ارض اندلس  
سماع مقتدر فيها ومعتضد

القاب مملكة في غير موضعها  
كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد « (٤٩) .

وحين فقدت الأندلس وحدتها تبددت طاقاتها العسكرية وانشغلت جيوشها بالدفاع عن الحكام وبالفتن الداخلية ، وكانت الأندلس في عصر الخلافة تمتلك قدرات بحرية كبيرة جدا ، ففقدت الآن اساطيلها ، وحدث هذا في مطلع القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ، الفترة التي انبعثت فيها الطاقات البحرية لدول اوربا خاصة دول مدن ايطاليا ، واندفع النورمان نحو فرنسا وسواها وزادت الروح الصليبية التهابا وحدة وتعصبا وفقد المسلمون السيطرة على البحر المتوسط ، ولم تقتصر آثار هذا فقدان على الجانب العسكري والسياسي بل تعدته الى الجانب التجاري ثم الصناعي ، وكان لهذا أسوأ الآثار على ازدهار الأندلس وقدراتها على التماسك والصمود .

وخفت الضغوط الصليبية احيانا على ملوك الطوائف لدى موت واحد من كبار ملوك الشمال وحدث خلافات حول وراثته من ذلك ما حدث اثر وفاة شانشو ( شنجه ) الكبير ، حيث انهيار صرح الوحدة التي اقامها واقتسم اولاده الاربعة املاكه وهم : غارسيا ، وفرناندو ، وراميرو ، وجونثالو ، وقام صراع بين هؤلاء وبرز من بين صفوفهم فرناندو صاحب قشتالة الذي استطاع سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م أن يستولى على مملكة ليون ، ثم قام منذ ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م بشن عدة حملات ناجحة ضد امراء المسلمين في سرقسطة وطليطلة وبطليوس كما استولى على عدد من القلاع والحصون واجبر بعض ملوك الطوائف على دفع الجزية والاتاوات له (٥٠) وتوفي فرناندو سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م فقام صراع بين

اولاده حول توزع املاكه واستطاع ساندشو الثاني الذي كان من نصيبه مملكة ليون ان يهزم أخاه الفونزو السادس ، وبعدها اسره نفاه الى ديار المسلمين فالتجأ الى طليطلة ، وقد سلفت الاشارة الى هذه المسألة ، ومفيد ان نعود هنا لنبين أن الفونزو السادس امتلك بعد وفاة أخيه ساندشو قشتالة وليون ثم ضم اليهما جيلقية ، ومن ثم اقلع في حرب ضروس ضد المسلمين الذين انغمس امرأؤهم « في الملذات وصارهمهم الوحيد منافسة بعضهم بعضا في البذخ والترف ، وكانوا في حسد دائم مع بعضهم وحرب مستمرة بالخنجر والانغماس في الحضارة » (٥١) .

ومعروف ان الحضارة عند ما تغدو انغماسا في الملذات تفرغ من محتواها الاخلاقي وتصبح عرضة للسقوط بسرعة على ايدي القوى الهمجية ، وقام ابن الطقطقي صاحب الفخري في الاداب السلطانية يوصف درجة الحضارة التي وصلت اليها الخلافة العباسية وقت تعرضها لغزو هولاكو ، وتحدث عن الانغماس في الملذات ، ثم حكى عن واحد من امراء الجند الذين تصدوا لجيش هولاكو قال : « كنت في عسكر الدويدار الصغير لما خرج الى لقاء التتر بالجانب الغربي من مدينة السلام في واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة ، قال : فالتقينا بنهر بشير من اعمال دجيل ، فكان الفارس منا يخرج الى المبارزة ، وتحتة فرس عربي ، وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم ، ثم يخرج اليه من المغول فارس تحتة فرس كأنه حمار ، وفي يده رمح كأنه المغزل ، وليس عليه كسوة ولا سلاح فيضحك منه كل من راه ، ثم ماتم النهار حتى كانت لهم الغرة ، فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ، ثم كان من الامر ما كان » (٥٢) .

لقد ملكت الهمجية الاسبانية الصليبية المتعصبية القدرة على الفتك بالحضارة الاسلامية والوجود العربي بالاندلس ، وكان فقط يمكن لقوة من السوية الحضارية نفسها مع التعصب أن تتصدى لها ، ووجدت هذه المؤهلات لدى لمتونة المرابطين ، لكن لمتونة ما لبثت أن

تأثرت بحضارة الأندلس أو تصادمت معها ، وكان لذلك نتائج خطيرة .

لقد أخذت حرب الاستغلاب التي قادها الفونسو السادس سمة صليبية واضحة ، شارك فيها متطوعون من كل طرف أوروبي ، وباركت البابوية هذه الحروب ودعمتها بصكوك الغفران ، وهكذا اشتعلت الحروب الصليبية على أرض الأندلس وامتدت إلى صقلية قبل أن تشتعل في أرض الشام ، ومع هذا امتزجت حرب الاستغلاب في الأندلس بشيء من المشاعر القومية أو الوطنية « فقد عد ملوك ليون أنفسهم ورثة الملوك القوط للأندلس قبل الفتح الإسلامي لها ونقل أحد رسل الفونسو السادس إلى الأمير عبد الله صاحب غرناطة قول الفونسو : « انما كانت الأندلس للروم في أول الأمر ، حتى غلبهم العرب والحقوهم بأنحس البقاع : جليقية ، فهم الآن عند التمكن ، طامعين في أخذ ظلاماتهم » (٥٣) .

وكان الفونسو على بينة بأحوال حكام الأندلس وبتهور أحوال الناس فيها ، وبهدف زيادة اضعاف البلاد بنى خطة في حروب الاستغلاب ، فقد نقل عنه قوله : « أنا من غير الملة ، وكل الناس يشبهني ، فبأي وجه اطمع في اخذها ، ان كان من باب الطاعة ، فأمر لا يمكن ، وان كان من وجه القتال فيهلك فيها رجالي وتذهب أموالي وتكون الخسارة علي أكثر مما نرجوه إن صارت إلي ولو صارت لم تتمسك إلا بأهلها ، ثم لا يؤمنون ، ولا من الممكن ان نستبيح أهلها ونعمرها بأهل ملتي ، ولكن الراي ، كل الراي تهديد بعضهم ببعض ، وأخذ أموالهم أبدا ، حتى ترق وتضعف ، ثم هي تلقي بيدها اذا ضعفت ، وتأتي عفوا كالذي جرى بطليطلة ، انما كان من فقر أهلها وتشتتهم ، مع اندبار سلطانها ، وصارت إلي بلامشقة » (٥٤) .

والثير للانتباه أن أمراء دول الطوائف كانوا على بينة بأهداف الفونسو وخططه ومع هذا « كان الجميع يساير الأمور ، ويدافع الأيام ويقول : من هنا إلى ان تتم الأموال وتهلك الرعايا .... يأتي

الله بالفرج وينصر المسلمين « (٥٥) وكان كل منهم يشترى رضى الفونزو ، ويطلب منه أن يكون معتدلا في مطالبه حتى لا تسقط دولتهم لآخر من ملوك الطوائف فيصبح قويا في وجه الفونزو ، فقد حاصر الفونزو غرناطة وطلب مبلغ خمسين ألف مثقال مقابل انصرافه « على خير » فأجابه الأمير عبد الله : « إن ذلك لا يقدر عليه ، وفيه من القطع لنا ما يفترضنا به ابن عباد ، فانه لو اخذ غرناطة قوي عنصره ، ولم ينطع لك ، فخذ ما نقدر عليه ، واترك رمقا لانستأصل من أجله ، وما تركت تجده عندنا متى ما طلبت » (٥٦) .

لقد استنزف ملوك الطوائف أموال أهل الأندلس في شراء السلم من الفونزو وفي بذخهم غير المحدود ، ولعل الحكاية التالية تكفي في أن تكون شاهدا ، التقى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية بفتاة من عامة الشعب فأعجب بها وخلبت عقله فتزوجها ، وكان اسمها اعتماد ، وتعرف عادة باسم روميكييا ، وقد « رأت مرة نسوة من الممتهنات قد وضعن أرجلهن في معجن فيه طين لضرب اللبن ، فدفعها هذا إلى البكاء ، فأثر ذلك في نفس المعتمد وسألها : ما الذي يبكيك ؟ فقالت له : اه إنني لتعسة ، ومنذ انتزعنتي من الحياة الحرة الطليقة المرحة أيام أن كنت أنعم بكوخي الحقير ، وأنا سجيننة هذا القصر العابس ، أسيرة الحياة المقطبة ، مثقلة بسلاسل النقاليد وعادات القصر المملة ، انظر الى هؤلاء النسوة اللاتي عند شاطئ النهر ، وانظر الى أرجلهن منتعلات بالطين ، ليتني كنت عارية القدمين مثلهن اعجن الطين ، وليتني حرمت الغنى والسلطان ، واعطيت الحرية التي استطيع بها أن أفعل ما أريد ، فأجابها وقد شاعت على شفثيه ابتسامة لطيفة : بل انك عما قليل ستستطيعين .

ونزل في اللحظة نفسها الى فناء القصر ، وأمر باحضار مقدار عظيم من المسك والعنبر وبعض الاعطار ، ووضع ذلك كله في معجن ، وأمر أن يمزج بماء الورد ، ويداف ويسحق ، الى أن صارت منه عجينة في حجم تلك التي كانت في معجن النسوة اللاتي كن يضربن اللبن ، ولما تهيأ له كل ما اراد من ذلك صعد الى اعتماد وقال لها :

للتفضلي بالنزول الى فناء القصر أنت وجواريك ، فان معجن الطين في انتظارك فنزلت الأميرة الى ساحة القصر ، وخلعت هي وجواريتها نعالهن وصرن يعجن باقدامهن ذلك الطين المسكي المدوف وهن في مرح وسرور

ومما لا ريب فيه ان تحقيق هذه الرغبة قد كلف المعتمد ثمنا باهظا واموالا طائلة ، وقد كان في استطاعته ان يغضي عن هذه الحادثة « (٥٧) » .

وقد تذكرنا هذه الحادثة بحادثة ميسون ابنة بحدل زوج معاوية ابن أبي سفيان حين ضاقت نرعا بحياة القصر ، غير ان الفارق كبير جدا فهذه جبل لها المسك والعنبر لتعبت به وتلك قالت :  
وليس عباءة وتقرعيني

احب إلي من لبس الشفوف

وتوالت المصائب على عرب الأندلس ، وعندما كان الضعف ينتاب الفونزسو او يحتاج الى المال والمؤن ، كان ملوك الطوائف يهبون لنجدته والتفريج عنه ، لذا حق له أن يتسمى بملك الملثين وأن يحمل لقب امبراطور ، وحدث في عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م أن حاصر مدينة طليطلة ، وكان ذلك في فصل الشتاء وكان ذلك الشتاء قاسيا جدا ، فيه اشتد البرد وكثر المطر مما سبب انقطاع المواصلات بين شمال الأندلس وطليطلة الواقعة بالوسط ، وهكذا تعذر وصول المؤن الى جيش الفونزسو ، واصيب جيشه بمجاعة حقيقية ، وعندما اصبح الفونزسو في هذا الوضع المخيف هب ملوك الطوائف لقتاله واغتنام الفرصة بدفعه عن طليطلة ذات الموقع الاستراتيجي الهام بل للتفريج عنه وعن جيوشه « ولولا اهتبال ملوك الطوائف بإقامة مرافقة ، واصغاؤهم الى هدر شقاقه لطار شعاعا ، وذهب ضياعا » (٥٨) .

وسقطت طليطلة ، ودخل الفونزسو عاصمة القوط القديمة وانتهت دولة بني ذي النون ، ورثى احد الشعراء طليطلة بقصيدة منها قوله :

طليطلة اباح الضد منها  
حماها إن ذا نبأ كبير  
محصنة محسنة بعيد  
تناولها ومطلبها عسير  
الم تك معقلا للدين صعبا  
فذلكه كما شاء القدير  
واخرج اهلها منها جميعا  
فصاروا حيث ساء بهم مصير  
وكانت دار ايمان وعلم  
معالمها التي طمست تنير  
مساجدها كنائس اي قلب  
على هذا يقر ولا يطير (٥٩) .

لقد غدت الآن طليطلة عاصمة لدولة قشتالة فانقلبت الموازين  
وتغير الوضع الاستراتيجي بالاندلس ، فمن قبل كان مقر هذه الدولة  
في اقصى الشمال ، أما الآن فبات في وسط الاندلس ، في موقع  
مسيطر على جميع انحاء شبه الجزيرة الايبيرية ، يقول ابن  
الكردبوس : « ولما حصل الطاغية الفذش لعنة الله بطليطلة ، شمع  
بانفه ورأى أن زمام الاندلس قد حصل في كفة ، فشن غاراته على  
جميع اعمالها حتى فاز باستخلاص جميع اقطار ابن ذي النون  
واستئصالها ، وذلك ثمانون منبرا سوى البنيات ( البلدات ) والقرى  
المعمورات ، وحاز من وادي الحجارة الى طلبيرة وفحص اللج  
واعمال شنتمرية كلها ، ولم يكن بالجزيرة من يلقى اقل كلب من  
كلابه ، فعند ذلك وجه كل رئيس بالاندلس رسالة الى الفذش  
مهنئين ، وبانفسهم واموالهم مفتقدين وفي أن يشركهم في بلاده له  
عاملين ، ولاموالهم اليه جابين ، حتى أن صاحب شنتمرية حسام  
الدولة ابن رزين نهض اليه بنفسه ، وتحمل هدية عظيمة  
القدرسنية ، متقربا اليه ، وراغبا أن يقره في بلده عاملا بين يديه

فجازاة على هديته بقرد وهبه اياه ، فجعل ابن رزين يفخر به على سائر الرؤساء ويعتقد انه جنته مما كان يحذر من الفذش من وقوع الباساء .

وانتخى الفذش انتخاء الجبابرة ، وانزل نفسه منازل القياصرة ، وداخله من الاعجاب ما احتقر به كل ماشي على التراب ، وتسمى بالانبراطور ، وهو بلغتهم أمير المؤمنين ، وجعل يكتب في كتبه الصادرة عنه : من الانبراطور ذي الملتين « (٦٠) » .

واجمل ابن الكردبوس وصف علاقات الفونسو السادس مع حكام الاندلس بقوله « واستحكم في المسلمين طمعه ، وصح في قياسه الفاسد ان يستخلص جزيرة الاندلس لنفسه فلم يزم عن شن الغارات ومواصلة الغزوات .

وصادف ايام ملكه نفاقا كثيرا بين المسلمين واختلافا عظيما ، وضعف بعضهم عن البعض الا بمعونة الروم ، فبذلوا للفذش ما يحبه من الاموال ليعينهم على مناوئهم بانجاد الرجال ، واللعين في اثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرور ، وهم عن ذلك مشغولون بشرب الخمر ، واقتناء القيان وركوب المعاصي وسماع العيdan وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية متى طرات من المشرق ، كي يوجهها الى الفذش هدية ليتقرب بها اليه ويحظى دون مطالبه لديه ، الى ان ضعف من اولئك الثوار الطالب والمطلوب ، وذل الرئيس والمرؤوس وافتقرت الرعية ، وفسدت احوال الجميع بالكلية ، وزالت من النفوس الأنفة الاسلامية ، وأذعن من بقي منهم خارج الذمة الى اداء الجزية ، وصاروا للفذش عمالا يجبون له الاموال ، لا يخالف امره احد ، ووكلوا امور المسلمين الى اليهود ، فعاثوا فيهم عيث الأسود وجعلوهم حجابا ووزراء وكتابا .

وتطوف الروم في كل عام على الاندلس يسبون ويغتمون ويحرقون ويهدمون ويأسرون « (٦١) » .

وبعدما صار الفونسو سيد طليطلة اخذ يتطلع بجدية نحو اشبيلية للاستيلاء عليها وازالة ملك آل عباد منها ، واتبع في سبيل ذلك

خططه المعروفة في التهديد واستنزاف الموارد ، واشعار الناس بعدم وجود منفذ ، وحاول ابن عباد دفع الفونزو السادس عنه فراسله وحاول شراء رضاه بالأموال والقلاع وغير ذلك ، وبعث اليه في احدى المناسبات برسول يهودي «يعرف بابن مشعل فقال له : كيف اترك مجانين (ج.ماجن) تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وامرائهم : المعتضد والمعتمد ، والمعتصم ، والمتوكل ، والمستعين ، والمقتدر ، والأمين ، والمأمون ، وكل واحد منهم لايسل في الذنب عن نفسه سيفا ، ولايرفع عن رعيته ضيما ولاحيفا ، قد اظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغاني والعيدان ، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحدا ، وأن يدعها بين أيديهم سدى» (٦٢) .

وكذلك بعث الفونزو الى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية بوفد من عنده ليجبي منه الجزية ، وترأس هذا الوفد يهودي اسمه ابن شالب ، ونزل رجال الوفد «خارج اشبيلية ، فوجه اليهم المعتمد ابن عباد المال المعلوم مع بعض اشياخ اشبيلية ، منهم ابن زيدون (ابن الشاعر المشهور) وغيره ، فلما وصلوا الى خبائه واخرجوا اليه المال العين والسيبائل ، قال لهم اليهودي : والله لاأخذ منه هذا العيار ، ولاأخذ منه الا مشحرا ، ولايؤخذ منه في هذا العام إلا أجفان البلاد ، وزاد في كلامه ونقص ، واساء الأدب ، فبلغ المعتمد خبره ، فدعا بعبيده وبعض جنوده ، وأمرهم بالخروج لقتل اليهودي ابن شالب ، وأسر من كان معه من النصاري ففعلوا ما أمرهم به من ذلك .

فلما بلغ ذلك أنفدش ، أقسم بأيمان مغلظة أن لايرفع يده عنه وأنه يحشد من الروم عدد شعر رأسه ، ويصل بهم الى بحر الزقاق ، فكان ذلك .

وخرج أنفدش في جيش لا يحصى كثره ، وافسد في الشرف (ربض اشبيلية) فسادا كبيرا ، وحرقه ، واجتاز عليه قاصدا حصن طريف ، فوقف على شاطئ بحر الزقاق ، والبحر يضرب ارساغ

فرسه» (٦٣) ومن هناك بعث برسالة فيها تحديات وقحة الى يوسف بن تاشفين .

وكيف لا يفعل هذا ولا يشتط حيث لم يجد في الأندلس من يقاومه او يدفعه ، فقد «انتشر الروم على جميع الأقطار ، وعاثوا في جميع الأمصار ، وصارت لهم أقصى بلاد الاسلام مرتعا ، ولقد بلغ الروم أن اغاروا في ثمانين فارسا ممن لا خلاق لهم على نظر المرية ، فأخرج ابن صمادح قائدا من قواده ، ومعه من خيار جنده اربعمائة ، فلما التقوا بالعدو ، انهزموا ، وما وقفوا ولا أقدموا» (٦٤).

والثير للانتباه هنا إن المستعرض لتاريخ الأندلس حتى نهاية الفترة العامرية أن القوات المسلمة كانت تلقى في الشمال مقاومة عنيدة ، وأن ملوك الشمال لم يلق أيا منهم السلاح ولم يستسلم بل لم يتعد واقع الحال كما قالت العرب «هنة على نخ».

ويؤس أهل الأندلس من ملوكهم فكان أن توجهوا بأبصارهم نحو المغرب الأقصى حيث يوسف بن تاشفين ، وقصدته وفود أندلسية «وشكوا اليه ما حل بهم من أعدائهم ، فوعدهم بامدادهم واعانتهم وصرفهم الى أوطانهم» (٦٥) .

وشدد الفونزسو من ضغوطه على ابن عباد «وسأله أن يخلي له معاقل كان الموت عنده أولى من اعطائها ، فوجست نفسه منه بالجملة» (٦٦) .

وقال ابن الكردبوس «ولما تيقن كل من ثار ورأس ، ولا سيما رؤساء غرب الأندلس كابن عباد وابن الأفطس ، مذهب الفندش فيهم وأنه لا يفتح منهم بجزية ولا هدية ، رأوا أن الرجوع الى الحق أحق فاستصرخوا بالمرابطين ، واستنصروا بأمرير المسلمين يوسف بن تاشفين ، على أن ينخرطوا في سلكه ، ويدخلوا تحت ملكه ، وفتحوا له بابا الى الجهاد كانوا قد سدوه ، فأجابهم الى ما رغبوه ، ولم يخالفهم فيما طلبوه ، إذ كان في جهاد المشركين والذب عن حريم المسلمين ، فاستيقظ طلب النصر من منامه ، وتطلع بدر التأييد من خلال غمامه» (٦٧)

لم تكن الأمور يمثل هذه الدرجة من السذاجة ، وفي الحقيقة لم يرجع ملوك الطوائف قط الى جادة الصواب ، وأبدا لم يروا أن الرجوع الى الحق أحق ، بل أرادوا الحفاظ على ملكهم من خلال حرب يخوضها الصديق ضد العدو فتضعفهما معا فتحصل الفائدة لهم ، فقد رام ابن عباد كسر الفونسو «بطوائف المرابطين وضرب بعضهم ببعض» (٦٨) .

غير أن يوسف بن تاشفين تنبه لهذا ، ربما بوساطة مستشارية من أهل الأندلس وأثر هذا التنبه على طبيعة المواجهة العسكرية بينه وبين الفونسو وعلى استثمارها ثم على مستقبل ملوك الطوائف . ولم يرد يوسف على نداءات الاستغاثة بالاستجابة الفورية ، وكذلك فعل عندما بلغته رسالة الفونسو التي جاء فيها : «لم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل والتواكل والاهمال للرعية ، والاخلال الى الراحة ، وأنا أسومهم الخسف فأخرب الديار ، واهتك الأستار ، وأقتل الشهبان والأسر الولدان ، ولاعذر لك في التخلف عن نصرهم إن أمكنتك فرصة هذا ... فان كنت لاتستطيع الجواز فابعث الي ما عندك من المراكب لأجوز اليك ، وأنا أقاتلك في أحب البقاع اليك ، فإن غلبتني فتلك غنيمة جلبت اليك ، ونعمة مثلت بين يديك ، وان غلبتك كانت لي اليد العليا ، واستكملت الامارة ، والله يتم الارادة» (٦٩) .

واخذ يوسف بن تاشفين يعد العدة للجواز الى الأندلس ، واقتضى الحال منه تأمين ما يكفي من القوات البرية للجواز والقتال ، وتأمين الأساطيل اللازمة لنقل القوات مع الأعتدة والمؤن والأسلحة وجلب الامدادات اذا لزم الأمر ، وهكذا شرع في تجديد العساكر ووفورها ، وبعث الى الصحراء للمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم ، يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب ، وطاعة اهله ، ويؤكد عليهم في القدوم اليه ، فوفد عليه منهم جموع كثيرة ، ولاهم الأعمال ، وصرف أعيانهم في مهمات الأشغال ، فاكتسبوا الأموال ، وملكوا رقاب الرجال ، وكثروا

بكل مكان ، وساعدهم الوقت والزمان ، وكثرت جموعهم وتوفرت عساكرهم ، وعظم ملك يوسف بن تاشفين ، وضم من جزوله ولطه ومصمودة وقبائل زناتة جموعا كثيرة ، وسماهم بالحدشم ، وضم طائفة أخرى من أعلاجه وأهل داخلته وحاشيته فصاروا جموعا كثيرة ، وسماهم الداخلين ، فاجتمع له في الطائفتين ثلاثة الاف فارس» (٧٠) .

ولم يكتف يوسف بهذا فقد وجد نفسه بحاجة الى السلاح والعتاد من الأنواع المستخدمة في الأندلس مع خبراء بشؤون القتال لدى الأندلسيين وأعدائهم ، ولهذا «بعث الى الأندلس برسم شراء العدة وآلات الحروب ، فاشترى له منها كثيرا » وأمضى عاما في «اقتناء العدة واتخاذ السلاح واقتناء الأجناد واختيار الرجال فبلغ جيشه الى اثني عشر ألف فارس ، كلهم نخبة أنجاد» (٧١) .

ولم يكتف يوسف بهذا بل تبادل الرسائل مع المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف يطلب منهم جمع قواتهم وتوحيد طاقاتهم العسكرية لتجتمع اليه بعد عبوره الى الأندلس لقتال العدو ، وطلب يوسف من ابن عباد تسليمه الجزيرة الخضراء يتخذها قاعدة لقواته التي ستجوز الى الأندلس ، وجاء هذا الطلب بناء على نصيحة واحدا من كتابه اسمه عبد الرحمن بن أسباط ، وكان أندلسيا من أهل المدرية ، فقد روي أنه قال له: «أيد الله الأمير تعلمون أن الأندلس جزيرة مقطوعة في البحر ، ويعمر المسلمون منها الثمن وسبعة أثمان يعمرها

النصارى وهي ضيقة حرجة ، سجن لمن دخلها ، لا يخرج إلا تحت حكم صاحبها ، وإن أنت جزت إليها وحصلت فيها ما يكون لك في نفسك شيء ، وهذا الرجل الذي استدعاك ما بينك وبينه مئات قديم ، ولا صداقة متصلة ، ويبقى إذا قضى الله الغرض من العدو أن يمسك بها ، والحال كما ترونه ، والنظر إليكم ، فاكتب إليه إنك لا يمكنك الجواز إليه إلا أن يعطيك الجزيرة الخضراء ، فتجعل فيها ثقاتك وأجنادك ، ويكون الجواز بيدك متى شئت » (٧٢) .

وكتب يوسف إلى المعتمد بن عباد يطلب منه التخلي له عن الجزيرة الخضراء وأن يخليها له ويكتب بذلك صكا عليه توقيعه مع شهادات رجال الدولة والقضاة والفقهاء ، وكانت ولاية الجزيرة الخضراء مسندة إلى الرازي يزيد بن المعتمد ، لهذا عارض تسليم الجزيرة الخضراء إلى المرابطين ، وكان الرشيد الابن الثاني للمعتمد قد عارض من قبل أيضا فكره الاستعانة بالمرابطين ، وأيده في هذا وجوه دولة اشبيلية ، فقد أشار هؤلاء على المعتمد « بمداواة الأذفدش ملك قشتالة ، وطلب معاهدته ، وعقد السلم معه على ما يذهب إليه من الشروط ، وكيف ما أمكن ، وأن ذلك أولى من تجويز المرابطين .

ثم إنه خلا بعد ذلك بابنه وولي عهده الرشيد أبي الحسن عبيد الله ، وقال له : يا عبيد الله إنا في هذه الأندلس غرباء بين بحر مظلم وعدو مجرم ، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى ، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس لنا فيهم نفع ولا ترجى منهم نصره ولا جنة إن نزل بنا مصاب ، أو نالنا عدو ثقیل ، وهذا اللعين أذفدش قد أخذ طليطلة من يد ابن ذي النون بعد سنة سبع وسبعين ، وعادت دار كفر ، وهاهو قد رفع رأسه إلينا ، وإن نزل علينا بكل كله ما يقلع عنا حتى يأخذ إشبيلية ، ونرى من الراي أن نبعث إلى هذا الصحرأوي ، ملك العدو نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف مجباننا وتبددت أجنادنا ، وأبغضتنا العامة والخاصة ، فقال له ابنه الرشيد : يا أبت ا تدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا ؟ فقال : يا بني ، والله لا يسمع عني أبدا أني أعدت الأندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى فتقوم علي اللعنة في منابر الاسلام مثلما قامت على غيري ، حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير « (٧٣) .

لاندري مدى صحة هذه الرواية اخذين بعين الاعتبار أن الحديث جرى على خلوة بين أب وابنه ، والمهم معرفته الآن هو أن المعتمد ابن عباد جمع (٧٤) « القاضي والفقهاء ، وكتب عقد هبة الجزيرة

الخضراء ليوسف بن تاشفين وتسليمها له بمحضر ذلك الجمع ،  
وبعث به إليه « (٧٥) .

وقام المعتمد بن عباد بمخاطبة جاريه المتوكل عمر بن محمد بن  
الأفطس ملك بطليوس ، وعبد الله بن حبوس ملك غرناطة ، وطلب  
منهما أن يرسل كل منهما قاضي حاضرة دولته وحين فعلا استحضر  
قاضي قرطبة وأضاف إلى هؤلاء القضاة وزيره ابن زيدون وبعث بهم  
وفدا للتعاقد مع يوسف بن تاشفين حول ترتيبات دخوله إلى الأندلس  
وبعد مفاوضات تم الاتفاق والتعاقد على أن تتصل الأيدي على غزو  
الروم بمعونته ، والا يعرض لأحدنا ببلده ولا يقبل عليه رعيته ، ومن  
يروم الفساد عليه « (٧٦) .

وتأهب يوسف بن تاشفين وقاد قواته نحو سبته للعبور إلى  
الجزيرة الخضراء ، وفعل هذا بعدما وردت عليه رسائل  
المعتمد « تعلمه أنه يتأهب للجهاد ، وتعهده بإخلاء الجزيرة  
الخضراء ، وأنه لا يصل إلى سبته إلا ويخضعها في يديه ، فلما وصل  
متأهبا لذلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدم رسله إلى المعتمد .....  
فأمسكهم بإشبيلية مدة طويلة ، وأمير المسلمين في ذلك متقلق  
لورودهم ، فأرسل معهم من شيوخ اشبيلية من يقول له : تربص في  
سبته مدة من ثلاثين يوما إلى أن نخلي لك الجزيرة فأجابهم إلى  
هذا « (٧٧) .

لقد ظل المعتمد بن عباد حتى هذه الساعة يراوغ وسيء الذوايا  
باتجاه يوسف بن تاشفين ، ونبه يوسف إلى هذا وقيل له : « لم  
يجعلك ابن عباد في هذا الالتواء إلا لأنه يريد أن يرسل إلى الفونس  
يعلمه بقدومك ، ولعله يتأتى له منه ما يرغب ، ويسأله أن يعاقده على  
أن يهبه الجزية أعواما فإن فعل استجاش عسكره على الجزيرة ،  
ومنعك الجواز ، فاسبقه إليها ، وإن كان النصراني لا يتأتى له ،  
أرسل إليك في الجواز » (٧٨) .

قيل هذا ليوسف ورسل ابن عباد عنده في سبته ، وبناء عليه « لما

انفصل الرسل عنه بذية التربص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوما ،  
جهز عسكريا مقدما من نحو خمسمائة فارس ، وأرسلهم في أثرهم ،  
فلم تصل الرسل إلى الجزيرة آخر النهار إلا والعسكر في أثرهم قد  
عدوا ونزلوا بدار الصناعة ، فالتفت القوم إلى خيل قد ضربت  
محلتها ، لم يدر متى أقبلت ، ولم يصبح لهم إلا وطائفة أخرى بعدها  
يزيدون ويترادفون ، حتى انكمل العسكر كله على الجزيرة مع داود  
ابن عاذشة ، وأحدقوا حوالها يحرسونها ، ونادى داود بالرازي ،  
وقال له : وعدتمونا بالجزيرة ، ونحن لم نأت لأخذ بلدة ولا ضرر  
بسلطان ، إنما أتينا للجهاد ، فإما أن تخلّيها من هنا إلى وقت  
الظهر من يومنا هذا ، وإلا فالذي تقدر عليه فاصنع .

وخاطب أمير المسلمين ابن عباد يعلمه بما صنع ويقول له :  
كفيّناك مؤنة القطن وإرسال الأقوات لأجنادنا كما وعدت ، فأرسل  
المعتمد لابنه الرازي في إخلائها لهم ، وحصل فيها داود ، وأتى  
الأمير إليها ودخلها ناظرا إليها ، ثم انصرف إلى سبّته إلى وقت  
إقباله . (٧٩) .

إن ما حدث حتى الآن يساعد على تفسير ما أسفر عنه العبور  
الأول الأول ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، وبعد هذا موقفه من  
ابن عباد وحقده عليه وعدم مسامحته له ، ولعدم وثوق يوسف بابن  
عباد تفقد الجزيرة الخضراء بنفسه ، وعلى الفور « شرع في بناء  
أسوارها ، ورّم ما تشعث من أبراجها وحفر الحفير ( الخندق )  
عليها ، وشحنها بالأطعمة والأسلحة ، ورتب فيها عسكريا انتقاه من  
نخبة رجاله وأسكنهم بها » (٨٠) .

وبسيطرة يوسف بن تاشفين على الجزيرة الخضراء حدث تبدل  
استراتيجي بشأن أحد منفذي البحر المتوسط ، فقد كان العرب قد  
امتلكوا منفذ الزقاق ( مضيق جبل طارق ) من طرفيه في العصر  
الأموي ، وذلك بامتلاكهم لكل من سبّته وطنجة من جانب المغرب  
والجزيرة الخضراء من الجانب الأندلسي المقابل ، وبعدها حاولوا

فتح القسطنطينية للاستيلاء على المنفذ الآخر ، ومع تأسيس الحكم الأموي بالاندلس امتلك هذا الحكم الجانِب الأندلسي فقط ، ومنذ أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر تملك الحكم الأندلسي الممر كله بطرفيه ، إنما بعد انتهاء فترة الاستبداد العامري فقد الأندلسيون الطرف المغربي ، والآن مع حلول قوات المرابطين في الجزيرة الخضراء صار بحر الزقاق مغربيا ، (٨١) وأذاك كان المسلمون يمتلكون مع بحر الزقاق مضيق مسينا قرب صقلية ، لكنهم سيفقدون السيطرة على هذا المضيق الهام بعد أمد قصير وذلك بسقوط صقلية للنورمان ، الأمر الذي سيكون له أبعد الآثار وأخطرها على مسار أحداث الحروب الصليبية وسيتضح ذلك أثناء الأعداد لما سيُعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، بعدما حرر صلاح الدين مدينة القدس ، ولنتذكر في هذا المقام أن دول المشرق كانت ذات إمكانات بحرية متدنية .

وكان بعدما عاد يوسف بن تاشفين إلى سبتة أشرف بنفسه على عبور قواته إلى الجزيرة الخضراء ، وقارب عدد هذه القوات العشرة آلاف فارس ، وكان القائد العسكري لها داود بن عاذشة ، وعندما تمت عملية العبور كان الفونزسو السادس بعيدا في الشمال ملقيا الحصار على مدينة سرقسطة ، وكانت أجزاء من قواته منشغلة بحصار طرطوشة وبلنسية ، وقد فوجئ بأخبار المرابطين فأوقف أعمال الحصار وجمع إليه قواته ليتوجه نحو يوسف بن تاشفين (٨٢) .

وتحرك يوسف بن تاشفين وراء قواته نحو إشبيلية « فتلقاه ابن عباد على مرحلة من الجزيرة فسلم عليه ، فهم ابن عباد بتقبيل يديه ، فبادر لمعانقته ، وسأله عن حاله ، وانبط مع في الحديث ، وهنأه ابن عباد بالسلامة ، ولحقت ضيافات ابن عباد ، فعمت جميع المحلة على حال كبرها ، وركب ابن عباد ودار بالمحلة ، ونظر إلى العسكر فرأى عسكرا نقيا ومنظرا بهيا ، فلم يشك أن ذلك الجمع لا يخلو من بركة » (٨٣) .

وبعدما وصل يوسف بن تاشفين إلى إشبيلية أقام بها ثلاثة

ايام ، ثم ارتحل نحو مدينة بطليوس ، لكن لماذا نحو هذه المدينة وليس نحو سرقسطة أو طرطوشة أو بلنسية ؟

لعل السبب هو أن المتوكل على الله ابن الأفطس صاحب بطليوس كان أول ملوك الطوائف كتابة إلى يوسف يستنجد به قائلا « ألا ناصرا لهذا الدين المهتضم ، ألا حاميا لما استبيح من حمى الحرم ، وإنا لله على ما لحق عبيده من ثكل ، وعزه من ذل ، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء ، والبلية التي ليس مثلها بلاء (٨٤) .

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك أعزك الله بالنازلة في مدينة قورية<sup>(٨٥)</sup> أعادها الله للإسلام ، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء ، ولمن فيها من المسلمين بالجلء ، ثم مازال ذلك التخائل والتدابير يتزايد حتى تخلط القضية ، وتضاعفت البلية ، وتحصلت بيد العدو ومدينة سرية (٨٦) وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في التحصين والامتناع ، وهي من المدينة كنقطة الدائرة تدركها من جميع الجهات ، دائرة بنواحيها ، ويستوي في فيء الأرض بها قاصيها ودانيها ، وما هو إلا نفس خافق ، ورمق زاهق استولى عليه عدو مشرك وطاغية منافق ، إن لم تدركوها بجماعتكم عجالا ، وتبادروا ركباننا ورجالا ، وتنفروا نحوها خفافا وثقالا ، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله ، فإنكم له أتلى ، ولا بما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنكم إلى معرفته أهدى » (٨٧) .

على هذا جاء يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للدفاع عن ثغور مملكة ابن الأفطس ، ولهذا توجه إلى بطليوس ( وهي منطقة تقع الآن على مقربة من الحدود البرتغالية ) لقد جاء للتفريج عن هذه المملكة ولدفع العدو عنها ، وليس للتوغل داخل الأراضي التي غلب عليها الفونزسو ، ويؤكد هذا التعليق ما ذكره الأمير عبد الله في مذكراته ، فبعدما حل يوسف بن تاشفين بأرض الأندلس وأثناء وجوده بإشبيلية راسل ملوك الطوائف للالتحاق به ومعهم قسواتهم ، ففعلوا باستئناء المعتصم ابن صمادح صاحب المرية حيث بعث بابنه

وبقي هو « متربصا ليرى كيفية الأمر ومخرجه مع الروم ، واعتذر بكبر السن مع الضعف » .

وتحدث الأمير عبد الله عن خروجه من مملكته للالتحاق بيوسف ابن تاشفين وأنه التقى به في الطريق إلى بطليوس وقال : « وراينا من اكرامه لنا وتحفيه بنا مازادنا ذلك فيه رغبة ، لو استطعنا أن نمنحه لحومنا فضلا على أموالنا ، ولقينا المتوكل بن الأفطس محتفلا بعسكره ، كما نرغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ووطن على الموت نفسه ... والعجب في تلك السفارة من حسن الذيات ، وإخلاص الضمائر ، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك » (٨٨)

هذا من جهة يوسف بن تاشفين أما من جهة الفونزسو السادس فقد عاد إلى طليطلة ، ومن هناك حشد قواته كما تلقى نجدات من المناطق الشمالية ومن فرنسا وسواها فاجتمع لديه أعداد كبيرة من المقاتلين ساروا تحت راية الصليب وبمباركة بابوية ، وقد بالغت المصادر العربية في تقدير تعداد القوات الصليبية ، يقول صاحب الحلل الموشية « واحتفل - الفونزسو - في الاستعداد ، وخرج ومعه ثمانون ألف فارس لابسين الدروع دون غيرهم حتى انتهى إلى فحص الزلاقة ، وكان عسكر المسلمين يناهز خمسين ألف فارس ، أربعة وعشرون ألفا من فرسان الأندلسيين مابين مدرع ولابس ، ومثلها أو أكثر منها مرابطون وأهل العدة » (٨٩)

وأرى في هذه الرواية مبالغة كبيرة ، وسبق أن نقلنا عن روض القرطاس أن تعداد المرابطين كان عشرة آلاف ، ونقلنا من قبل عن صاحب الحلل نفسه أن تعداد جيش يوسف بن تاشفين وصل إلى اثني عشر ألف فارس ، ولا يعقل أن يجلب يوسف إلى الأندلس كل ما ملكه من قوات ، وهكذا نجد الحميري صاحب الروض المعطار يقول في مادة « زلاقة » اختار الفونزسو ممن اجتمع إليه أنجادهم « وقال حين نظر إلى ما اختاره من جموعه : بهؤلاء أقاتل الجن والأدس ، وملانكة السماء ، فالقليل يقول : كان هؤلاء

المختارون من أجناده أربعين ألف دارع ، ولا بد لمن هذه صفته أن يتبعه واحد أو اثنان ، وأما النصاري فيعجبون ممن يزعم ذلك ويقول ، واتفق الكل أن عدة المسلمين كانت أقل من عدة المشركين .

والذي أراه أن عدد المسلمين لم يتجاوز العشرين ألف مقاتل وأن عدد الصليبيين زاد على هذا العدد قليلا ، لكن ليس أكثر من خمس وعشرين ألفا ، ونزلت القوات الإسلامية قرب أسوار بطليوس ، فهي جاءت للتفريغ عن أراضي هذه الدولة ، وهناك وردت الأخبار بزحف الفونزسو نحوها على رأس جيش كبير ، يقول الأمير عبد الله : « وتلومنا ببطليوس أياما حتى صبح عندنا أقبال الفونزسو في حفله ، يروم الملاقاة ، ويظن أنه يهزم الجيش لقلة معرفته به قبل ، وساقه القدر إلى أن توغل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنصاره ، ونحن بازاء المدينة متربصون ، إن كانت لنا فيها ونعمت ، وإن لم تكن كانت وراءنا حرزا ومعقلا نأوي إليها ، وأمير المسلمين يدبر هذا الأمر بحسن رايه ، ويلتوي عسى تقع الملاقاة بذلك الناحية ، دون أن يحوج إلى التوغل في بلادهم ، وهم دخلوا الأندلس لا يعرفون من لهم أو عليهم ، ورجسا بأن يكون الرومي لا يخرج إليه احد فينصرف طريقه ، ويكفي الله المؤمنين القتال » (٩٠) على هذا تمنى يوسف بن تاشفين عدم زحف الفونزسو نحوه ، لكن الفونزسو ركب رأسه وساق قواته مسافة واسعة ، وجاء بعدما أكل الطريق قواته ليقاقل قوما اتخذوا موقف الدفاع في متسع من الوقت والمكان ، وكتب الفونزسو الى يوسف يقول : « هاأنا قد أقبلت أريد ملاقاتك ، وانت تتربص وتختبئ » (٩١) .

وكان من المتوجب على المسلمين مهاجمة الفونزسو قبل أن ترتاح قواته وتتخذ معسكرا خاصا بها ، لكن يوسف لم يفعل هذا ، وترك الجيش المعادي يعسكر على مسافة ثلاثة أميال من معسكره ، وكتب يوسف إلى الفونزسو كتابا « يدعوه فيه إلى الجزية أو الاسلام أو

الحرب ، فلما وصل كتابه إلى الفوذسو أدركته الأنفة وداخله الكبير  
وقال للرسول: قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك »

وجاء في كتاب يوسف إلى الفوذسو السادس: « وقد بلغنا يا  
انفذش أنك دعوت إلى الاجتماع بك وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر  
البحر عليها إلينا ، فقد اجتزناه إليك ، وجمع الله في هذه العرصة  
بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ( ومادعاء الكافرين إلا في  
ضلال ) - سورة الرعد - الآية: ١٤

فلما وصل الكتاب إلى أذفدش وسمع ما كتب به إليه جاش بحر غيظه ، وزاد في طغيانه وكفره ، وقال أيمثل هذه المخاطبة يخاطبني ، وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة ، وأقسم أن لا يبرح من مكانه الذي نزل فيه ، وقال: يزحف إلي فإني أكره أن ألقاه قرب مدينة تعصمه ، وتمنعني منه ، فلا أشفي نفسي بقتله ، ولا أبلغ أمني فيه وبيني وبينه هذا البسيط المتدفع ، فأعلم السفراء أمير المسلمين بانتخائه وما أظهر من طغيانه وكبريائه » (٩٢) .

وأثناء تراشق الرسائل بين المعسكرين وتبادل الوفود كتب الفونزو « إلى أمير المسلمين مكررا منه يقول: إن غدا يوم الجمعة ولا نحب مقاتلتكم فيه لأنه عيدكم ، وبعده السبت يوم عيد اليهود ، وهم كثير في محلتنا ، ونحن نفتقر اليهم ، وبعده الأحد عيدنا فنحترم هذه الأعياد ، ويكون اللقاء يوم الاثنين ، فقال أمير المسلمين: اتركوا اللعين وما أحب » (٩٣) .

وحذر ابن عباد يوسف بن تاشفين ، ويلاحظ أن يوسف اتخذ معسكرا خاصا به بعيدا عن معسكر الأندلسيين الذين عسكروا في وجه جيوش الفونزو ، فقد عسكر يوسف خلف تلة في تلك المنطقة ، ويبدو أن المسلمين صدقوا ما كتب به إليهم الفونزو ، وفقط المعتمد اتخذ الاحتياطات اللازمة وبث العيون والطلائع وأمضى الليل يقظا خشية هجوم مفاجيء ، وجاء فجر الجمعة الثاني عشر لرجب الفرد سنة تسع وسبعين وأربعمائة (٩٤) « (٢٣ - تشرين أول ١٠٨٦ م ) دون قيام هجوم ليلي فمال المسلمون إلى الراحة مع إبقاء قوات الاستدلال واتفاق على خطة القتال ، أنما خطة دفاعية حيث يرجح أن المسلمين لم يفكروا بمهاجمة الفونزو وقواته ، وفي صباح يوم الجمعة استعد الفونزو للهجوم « وارتقى في ربوة مع جماعة زعماء قومه ليبصر أعداد جيوشه ، فأعجبه ما رأى من كثرتهم ولمعان دروعهم... فعند ذلك تقدم بجيشه قاصدا محلة المسلمين فأقبلت طلائع ابن عباد تنادي

وتقول إن الروم في أذيالنا ، والناس على طمانينة ، وقد كانوا اتفقوا على أن يكون المعتمد بن عباد في قلب المقدمة ، والمتوكل بن الألفطس في ميمنتها ، وأهل شرق الأندلس في ميسرتها ، وسائر أهل الأندلس في الساقة ، والمرابطون وأهل العدو كمائن متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء.

فلما علم ابن عباد بقدوم الطاغية عليه بادر الركوب على غير تعبئة ولا أهبة ، وغشيتهم خيل العدو كالسيل ، وعمتهم كقطع الليل ، وظنوا أنه هية لا ترقع ، فوافق محلة ابن عباد في طريقه بأهل أشبيلية وسائر عماله ، فوقعت بينهم حروب صعبة كانت الدائرة فيها على أهل أشبيلية ، استأثر الله فيها بأرواح شهت لها الرحمة وخطبتها الجنة ، وخرج ابن عباد بجراحات وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسنا.... قال ثم ثاب العسكر من المسلمين لأنفسهم وحملوا على محلة أنفذش حملة صادقة.

وقد كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على حين غفلة ، ولم يكن عنده علم بما وقع ، إذ كانت محلاته بعيدة عن محلة ابن عباد ، حتى بعث إليه ابن عباد كاتبه ابن القصيرة فأخبره ، فركب وأحرق به زعماء لمقونة ، وكبراء صنهاجة وسائر عسكره « (٩٥) » .

وأحتاج إيصال الخبر إلى معسكر يوسف بن تاشفين بعض الوقت ، وهدر المزيد من الوقت في ركوب القوات المرابطية واتخاذها الوضع القتالي ، يضاف إلى هذا أن يوسف تباطىء في إرسال النجديات إلى ابن عباد ، ولعله أراد التخلص من القوات الأندلسية ، قال ابن الكردبوس : « فأعلم أمير المسلمين بانهازم الرؤساء فقال أتركوهم قليلا للفنا فكلا الفريقين من الأعداء (٩٦) ومع هذا بعث بعد حين بعدد صغير من الجند للوقوف إلى جانب الأندلسيين والتفريغ عنهم ، ويبدو أن الفونسو قد تصور أنه اشتبك بالقتال ضد جميع القوات المسلمة ولم يعرف بوجود معسكر منفصل للمرابطين ، ولهذا شدد الضغط على القوات الأندلسية واستنفذ طاقاته ضدها ولم يتخذ ما ينبغي من احتياطات ، لهذا ما أن وصلت

طلائع القوات المرابطية حتى تغير التوازن وفيما الحال هكذا كان يوسف بن تاشفين قد بعث بالجسم الأعظم من قواته لتقوم بحركة التفاف وتهاجم معسكر العدو ، وتمكنت القوات المرابطية بيسر من ذبح المدافعين عن المعسكر الصليبي والقضاء النار فيه ، وفوجئ الفونزسو وقواته ، وتمزق الجيش الفرنجي بعدما حاول الفونزسو ارسال بعض كتائبه نحو المعسكر ، وفي هذا الوقت التقت القوات المرابطية بالقوات الأندلسية ، فطوقت القوات الصليبية ، ومع هذا جمع الفونزسو بقاياه وصمد وقاتل بشراسة ، فقام يوسف بتوجيه حرسه الشخصي من مقاتلي السودان فقصفوا صفوف الصليبيين وأصيب الفونزسو بفخذه بجراحة كبيرة ، وحدث هذا ورجالات الفونزسو « كلوا وثقلهم السلاح مع بعد المسافة » فانهزموا « فاقتفى المسلمون آثارهم وركبوهم بالسيف ، ومات من جيشهم خلانق وتبددوا في الطريق ، فمن بين قتيل، وميت مثقل صريع » (٩٧) وتسلل الفونزسو من بين الجرحى ومعه عدد ضئيل من جنده وهم جميعا مثقلين بالجراح ، وكما بالغت المصادر العربية في تقدير عدد القوات الصليبية بالغت في تعداد خسائر هذه القوات وأوحت أن جيش الفونزسو قد دمر وأبید ، وتحدث الأمير عبد الله عن الخسائر الفادحة التي لحقت بالصليبيين وقال : « ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل ، وأنصرف أمير المسلمين راجعا إلى أشبيلية على حال سلامة ونصر » (٩٨) ويعني هذا أن القوات المسلمة لم تطارد فلول العدو ولم تحاول استثمار النصر المبين الذي أحرزته ، وكان أقل ما هنالك محاولة استرداد طليطلة ، فلماذا حدث هذا؟

الشبه هنا شديد بين ما حدث في معركة منازكرد وهذه المعركة ، فالمعركتان كانتا من النوع الدفاعي ولم يمتلك المسلمون أية خطط للتوسع أو الهجوم ، فبعد انقضاء معركة منازكرد لم يحاول الب ارسال حتى إسترداد المواقع الشامية التي قد استولى عليها أسيره الامبراطور رومانوس دايجينوس ، وهنا في الأندلس جاء يوسف بن تاشفين للتفريغ عن بطليوس ، ولم يأت لاستعادة

طليطلة أو غيرها ، يضاف الى هذا أنه كان من عادات لتونة عدم مطاردة فلول المنهزمين من أعدائهم ، قال البكري لدى حديثه عن عادات الملائمين القتالية «ومن فر أمامهم لم يتبعوه» (٩٩) وطبعاً لم تقم القوات الأندلسية بأعمال المطاردة أو محاولة استرداد طليطلة لعدم توفر الامكانيات ، ولخوف كل واحد من ملوك الأندلس على ملكه ، ويمكن ان نضيف معرفتهم أكثر من سواهم بامكانيات الأعداء العسكرية ، فنحن سنجد بعد وقت ضئيل معاودة الفونسيو حملاته على المسلمين ومن ثم الاستنجد ثانية بيوسف بن تاشفين .

ويستوحى تأييد لهذا مما رواه صاحب الحلال الموشية لدى حديثه عن فرار الفونسيو قال : « ففر... ويوسف المسلمين تتبعه حتى لجأ الى ربوة عالية اعتصم بها لتعذر مرتقاها ، واحتدقت بها الخيل ، فقال لهم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين : الكلب اذا ارهق لا يد أن يعرض قد سلم الله المسلمين من معرفته ، ولم يقتل منهم الا القليل ، فان هجمنا على هؤلاء ابلوا بلاء عظيم ، ولكن اتركوهم ولا حظوا حالهم ، فلما جن الليل فروا وأصبحوا يوم السبت فلم يوجد لهم أثر ، ثم ثنى أمير المسلمين عنانه ، فنزل الناس بنزوله ، وقد أبان الله بصارمه تلك الشوكة ، واستأصل أولئك الجموع المشركة» (١٠٠) .

ومع هذا فعند الحميري صاحب الروض المعطار روايات وأراء جديدة بالاعتبار ، قال الحميري : « ولما انحاز الطاغية بشرذمته جعل ابن عباد يحرض على اتباع الطاغية وقطع دابره ، فأبى ابن تاشفين واعتذر بأن قال : إن اتبعناه اليوم لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين الينا منصرفين فيهلكهم ، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع الينا أصحابنا ، ويجتمعون بنا ، ثم نرجع اليه فنحسم داءه ، وابن عباد يرغب في استعجال اهلاكه ويقول : إن فر أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه ، ويوسف مصر على الامتناع من ذلك ، ولما جاء الليل تسلل ابن فرذند ، وهو لا يلوي على شي ، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحدا بعد واحد من أثر جراحهم ، فلم يدخل طليطلة الا في دون المائة .

وتكلم الناس في اختلاف ابن عباد وابن تاشفين ، فقالت شيع ابن عباد : لم يخف على يوسف أن ابن عباد أصاب وجه الرأي في جلته ، لكن خاف أن يهلك العدو الذي من أجله استدعاه فيقع استغناء عنه ، وقالت شيع يوسف : إنما أراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العود الى جزيرة الأندلس ، وقال آخرون : كلا الرجلين أسر حسوا في ارتغاء ، وإن كان ابن عباد أحرى بالصواب» (١٠١) .

المهم ان سوء الذوايا وانعدام الثقة بين الفرقاء والحرص على الملك ضيع على المسلمين مكاسب هذا النصر المؤزر ، وهكذا تبدد الوقت وضاعت الفرصة ، قال صاحب الحلال الملوشية : « ولما قضى الله بهذا الفتح الجليل ، والصنع الجميل ، اقام المسلمون في جمع اسلابهم ، وضم عددهم مدة أيام ، فامتلات ايديهم بالغنائم الوافرة والسبي الكثير ، واكتسب الناس فيها من آلات الحروب والأموال وسيوف الحلي ، ومناطق الذهب والفضة ما اغناهم .

وكان يوما لم يسمع بمثله من اليرموك والقادسية ، سياله من فتح ما كان أعظمه ، ويوم كبير ما كان أكرمه ، فيوم الزلافة ثبت قدم الدين بعد زلاقتها ، وعادت ظلمة الحق الى اشراقها ، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتزبها رؤساء الأندلس ، فجزى الله أمير المسلمين ، وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، أفضل الجزاء ، بما بل من أرماق ، ونفس من خناق ، ووصل لنصر هذه الجزيرة من حبل وتجشم الى تلبية دعائها ، واستبقاء ذمائها من حزن وسهل حتى هزم على يده أعداء الله المشركون ، وظهر أمر الله وهم كارهون » (١٠٢) .

وعاد يوسف الى اشبيلية ومعه ملوك الطوائف ، وقد شعر هؤلاء الملوك بتزلزل مواقعهم خاصة في أعين شعوبهم ، وانهم شبه تابعين ليوسف بن تاشفين ، يقول الأمير عبد الله : « ولما انقضت غزوته تلك جمعنا في مجلسه - أعني رؤساء الأندلس - وأمرنا بالاتفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأن النصرارى لم تفرصنا

الا للذي كان من تشبثنا واستعانه البعض بهم على البعض، فأجابه الكل أن وصيته مقبولة وأن ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري الى الحقيقة» ثم تحدث عن شكاوى قدمها بعض الحكام ضد بعضهم بعضا وعن موقف يوسف بن تاشفين من ذلك كله ، ثم اخذ يوسف يعد العدة للعودة مع قواته الى المغرب ، «وقد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجهنا لبقائنا في الجزيرة ، وأنس الجميع ، ولم يتربص في البلاد ألا يوحش سلاطينها مما يتوقعونه من اندياش رعيته اليه ، فكل من شكك اليه ذلك الوقت من رعيته يقول له : لم نأت لهذا ، والسلاطين اعلم بما يصنعوه في بلادهم ، حتى ازداد بذلك محبة الى ما كان عليه في قلوبنا ، واليه استنامة وميلا ، ورجع الكل الى وطنه» (١٠٣) .

وقيل الكثير عن الأسباب التي دعت يوسف الى العودة الى المغرب ، من ذلك ما نقله صاحب الحلل الموشية : « ولما فرغ من وقعة الزلاقة وانصرف اهل الأندلس الى بلادهم ، ورد عليه خطب أوجعه ، ونبأ أفجعه بموت ابنه أبي بكر سير ، فتعجل إيابه من العدو وصدده ، وقد قضى في عدو الملة وطره ، » (١٠٤) .

وقيل السبب الذي عجل بعودة يوسف هو موت أبي بكر بن عمر وتحرك ابنه إبراهيم ، ولقد عالجنا مسألة الوفاة من قبل ، يضاف الى هذا أن الزلاقة وقعت سنة ٤٧٩هـ وذهبت المصاير التي نحضنا رواياتها الى أن أبا بكر قد توفي سنة ٤٨٠هـ ، وقد تحدث صاحب روض القرطاس عن عودة يوسف بن تاشفين فقال : « واتصل بأمر المسلمين يوسف ... وفاته ولده أبي بكر ، وكان تركه مريضا بسببة فاغتم لذلك وانصرف راجعا الى العدو بسبب وفاة ولده ، ولولا ذلك لم يرجع ، فجاز الى العدو وبخل حضرة مراکش ، فأقام بها الى سنة ثمانين وأربعمائة ، فخرج في شهر ربيع الآخر منها يتطوف على بلاد المغرب ، ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر في أمور المسلمين ويسأل عن سير عماله في البلاد وقضاته» (١٠٥) .

ويرجع أن جولة يوسف على أعماله كانت روتينية ، أو أنها

ارتبطت بتفجر مشاكل خطيرة مع الناصر بن علناس صاحب قلعة بني حماد ( في جزائر اليوم ) فقد أغار ابن حماد على الأراضي المرابطية ، ويقال حدث هذا أثناء وجود يوسف بن تاشفين في الأندلس ، وهذا وفي محفوظات الفاتيكان نص رسالة مرسلة من البابا غريغوار السابع الى ابن حماد ، كما حفظ لنا ابن بسام في كتابه النخيرة نص رسالة تقريع بعث بها يوسف بن تاشفين الى ابن حماد (١٠٦) .

وعلى جميع الأحوال شكل جواز القوات المرابطية الى الأندلس نقطة تحول في تاريخ هذا البلد وفي تاريخ المغرب أيضا ، فقد أعاد نصر الزلافة التوازن العسكري والسياسي الى ديار الأندلس ، وأجل سقوط هذه الديار عدة قرون ، كما أن ظهور المرابطين على أرض الأندلس أتاح الفرصة أمام مسلمي الأندلس وعلى رأسهم بعض الفقهاء للشكوى ضد ملوك الطوائف ثم التمرد على سلطانهم ، وسنرى أنه لولا ذلك لما سهل على يوسف بن تاشفين توحيد الأندلس وإزالة ملوك الطوائف .

ولقد رفعت جملة الحوادث من مكانة المعتمد بن عباد في الأندلس وأظهرت أنه أقوى ملوك الطوائف وأكثرهم جدارة ، وأنه بالتالي منافس حقيقي للتوسع المرابطي في الأندلس ، لذلك وضعت الخطط لالازلته فحسب بل للحط من شأنه وذفيه ومعاملته بسوء كبير . ولقد وقعت هذه المعركة بعد ست عشرة سنة من وقوع معركة منازكرد ، فمعركة منازكرد كانت الفيصل في العلاقات البيزنطية الإسلامية - أو لنقل العلاقات بين أوروبا الشرقية والمشرق الإسلامي - منذ القرن الرابع هـ / العاشر للميلاد ، بعدما انتاب الضعف الدولة العباسية وصارت اليد العليا في جبهة الثغور ، لابل داخل الشام والجزيرة ، لبيزنطة ، والشئ نفسه حدث الآن في جبهة المواجهة الإسلامية مع أوروبا الغربية ، فبعد انتكاسات متوالية طوال ثلاثة أرباع القرن تلقت القوات الأوروبية ضربة ما حقة على بسيط الزلافة ، ومع أن المسلمين في المشرق والمغرب لم يستثمروا ما كسبوه مباشرة ، لكن صوت الهزيمة طرق بشدة وعذف أبواب

أوروبا من الشرق ومن الغرب ، لاسيما وقد اجتاحت التركمان أسية  
الصغرى بعد منازكرد ، ونشأت لهم دول على بعد أميال من  
القسطنطينية كذلك الحال في الأندلس ، فسنقرأ في الفصل التالي  
قصة إعادة الوحدة الى الأندلس وأخذ المسلمين مجددا بزمام  
المبادرة العسكرية ، ولاشك أن هذا كله شحذ أجواء أوروبا  
الغربية ، وزادها تعصبا وتأثرا بالنشاطات الدينية ، وهكذا  
استجابت شعوبها بسرعة لدعوة البابوية - كما سنرى - وحمل  
الأوروبيين شارة الصليب وخرجوا بدشود هائلة نحو المشرق لازالة  
الاسلام منه وتحويله الى وطن لاتيني وراء البحار .